أما بعد

في مهارات الخطابة وفنون الإلقاء

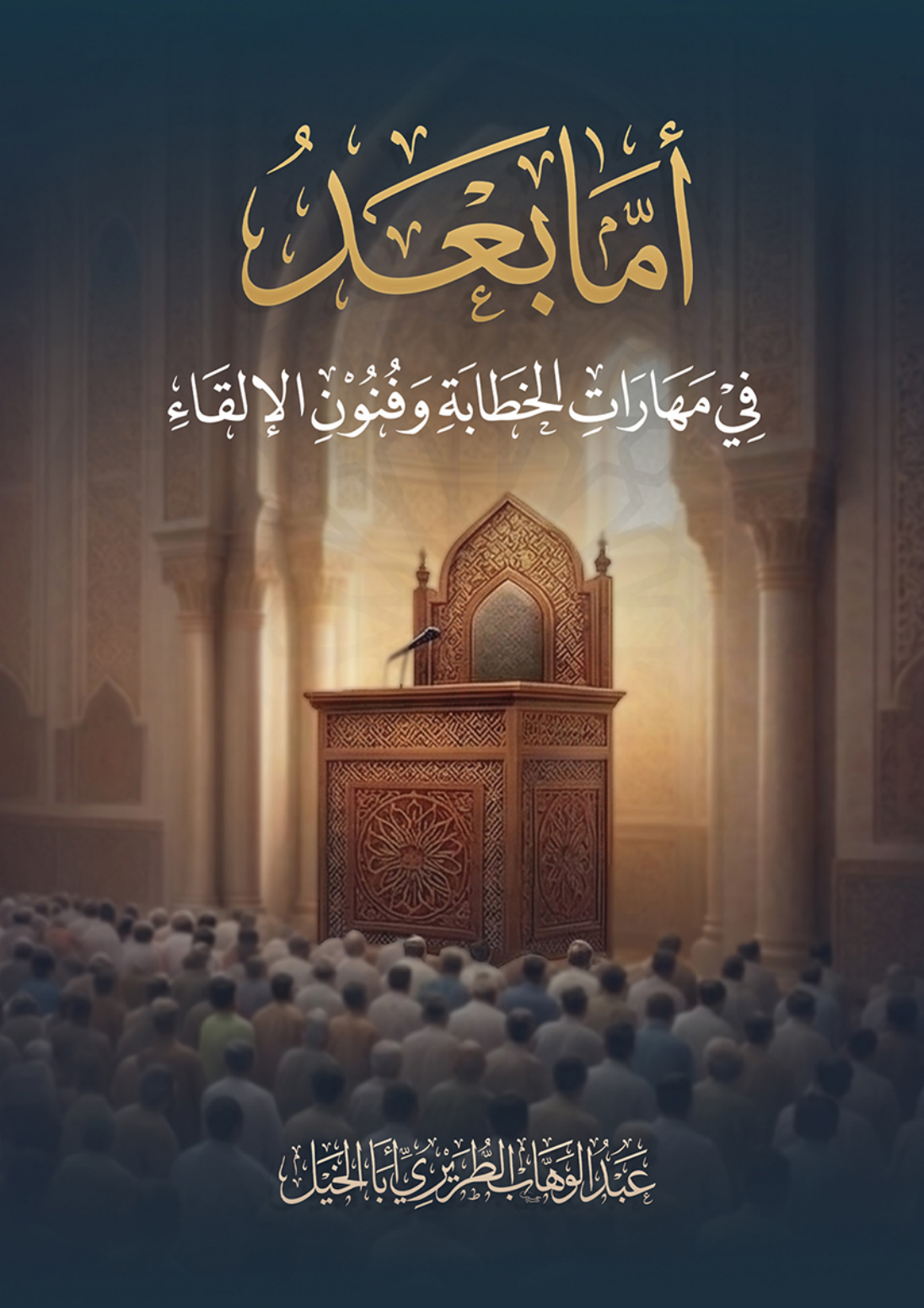

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

أمّا بعدُ

في مهاراتِ الخطابةِ وفُنونِ الإلقاءِ

اسم الكتاب	أما بعد.. في مهارات الخطابة وفنون الإلقاء
اسم المؤلف	عبد الوهاب الطريري أبا الخيل
التدقيق والمراجعة	مكتب المؤلف
التصميم والإخراج	حسام حوا houssamhawwa.com
الإشراف العام	م. حسن صالح

جميع الحقوق محفوظة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

ويحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©
Al Fursan Est. For Publishing & Distributing
No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2026 م /1447هـ

ISBN: 0000000000 رد مك

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 2026/03/1553

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

Al Fursan Est. For Publishing & Distributoring

الأردن - عمان - العبدلي

Jordan -Amman - AlAbadli

+962 6 560 7386 +962 6 565 3470

+962 79 520 8684 +962 79 7838 666

alfursan111@yahoo.com

@alfursanjordan

أما بعد

في مهارات الخطابة وفنون الإلقاء

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيّبة.

وبعد: فقد عشت مع خطبة الجمعة مستمعاً منذ تفتح وعيي، وكنت أنظر بإعجاب إلى الوقار والهيبة التي يبدو بها الخطباء وهم يعتلون المنابر، ثم صرت أعي ما يقوله الخطباء وألاحظ التّنوّع في إعدادهم وأدائهم، وأُعجَب بهذا، وأقلّد ذاك، وكان لخطبة الجمعة وقعها وأثرها، وكانت هي الخطاب المؤثّر في وقتها، فلم يكن التلفزيون قد دخل بيوتنا، ولم تكن وسائل التواصل قد التهمت أوقاتنا وعقولنا.

ولِذا فلا عجب أن تدخل مجلساً فتجد حديثهم عن خطبة خطيب الجمعة، أو تعبر السوق فتسمع مَن يتحدثون عمّا قال خطيبهم، وتطوّر أداء الخطباء من القراءة في دواوين الخطب القديمة إلى إعداد الخطب المتجدّدة في أسلوبها وموضوعها.

ثمّ عُيِّنتُ خطيباً في مدينة الرّياض عشر سنين فكانت خطبة الجمعة قلقاً يصاحبني أسبوعي كلّه، من اختيار الموضوع، وجمع مادّته، وطريقة إعداده، وقرأت في هذه المدّة عدّة كتب عن صناعة الخطابة، وأنضجتِ التجربةُ تصوّري عن الخطبة وطريقة إعدادها وإلقائها.

ثمّ غادرت الخطابة وعدتُ مستمعاً فارتفعت حاسّة النقد لديّ لِما أسمع، وقلّما سمعت خطيباً أُعجبت به إلا وقلت في نفسي: لقد أجاد في كذا، وأحسن في كذا. وجعلت أتلمّس مواضع إبداعه، وقد أستمع إلى آخر فأقول في نفسي: ليته قال كذا، ولو اختصر هذا، وأضاف ذاك. وهذه عاهة تُصيب مَن كان خطيباً ثمّ صار مستمعاً.

ثمّ ألقيت عدّة دورات تدريبية عن الخطابة، إعدادها وأدائها، وكان آخرها دورة ألقيتها مشاركة لمؤسسة «إمام» على مجموعة من الإخوة الخطباء، وبعد إلقائها رأيت تلخيصها في هذا الكتيّب، والذي جمعت فيه ذخيرة قراءتي، ونتاج تجربتي، وابتعدت فيه عن الطريقة النظرية المجردة، وحرصت على اختيار الأهم في هذا الموضوع، واختصاره ما أمكن، لأقدّمه إلى إخوتي شُداة خطباء الجمعة، لعلهم يجدون فيه إضافةً وإفادة تعين على جَودة الإعداد، وتحسين الأداء، وتحقيق البلاغ، وأداء الرسالة، سائلاً الله أن يرزقنا جميعاً الإخلاص في القصد، والصدق في القول، والصلاح في العمل، والبصيرة في الدعوة، وأن يهدينا ويهدي بنا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل
تركيا / أماسيا
الأربعاء ١٥ شوال ١٤٤٥هـ - ٢٤/ ٠٤/ ٢٠٢٤ م

تمهيد

الخطابة وقيادة الأحداث

دعنا نتخيل مشهد الناس عندما انتشر خبر وفاة النبي ﷺ، فالجموعُ تموج في المسجد، يعيشون شدة الصدمة، وذهول الحيرة، الخبر قد وقع عليهم كالصاعقة، بل أشد من الصاعقة، أحقا مات رسول الله ﷺ؟ لقد رأيناه صبيحة هذا اليوم، بأحسن مرأى رأيناه فيه، كأن وجهه ورقة مصحف، وفي وسط هذا الذهول وهذه الصدمة وإذا بذاك الرجل الطيب المبارك أبي بكر يقطع عليهم حيرة الذهول، ووقع الصدمة بأن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، مَن كان يعبد محمّدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فأفاقوا من صدمتهم، ورشدوا من ذهولهم، وانطلق الناس يتلون هذه الآية كأنما أُنزِلَتِ السّاعة[١].

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣٦٦٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٢٧).

إنه مشهدٌ من مشاهد أثر الخطبة وتأثيرها، فبكلمات قليلة أعاد الصديق الناس إلى سكينتهم، وذلك بنور القرآن وهداه، فتقبلوا قضاء الله النافذ بصبر المؤمن ورضاه، وكانت هذه الخطبة هي رشفة الدواء الذي أعاد لهم العافية.

هذا المشهد يبين لنا وقع الخطبة وتأثيرها في أشد اللحظات حرجا، وكيف أنها تكشف الغشاوة، وتحدد الاتجاه، وتقود الجموع، وتجعل الناس على بصيرة، بعد أن كانوا في حيرة.

ومثل ما كانت تلك الخطبة سببًا في إعادة الناس إلى رشدهم فإنّ للصّدّيق في اليوم نفسِه خطبة أخرى حفظ اللهُ بها أمةَ محمد ﷺ أن يتفرق شملها، وينتشر شتاتها، وأن تصبح أُمَمًا بعد أنْ كانت أمة، وذلك عندما اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة يريدون تعيين خليفة لرسول الله ﷺ من بينهم هُمْ، فقد كان بعضهم يرى أنه بوفاة النبي ﷺ رجعت الإمارة لأهل المدينة أهل البلدة، وكان هذا نذير فتنة عظيمة، فلو تمّت لتفرّقت الأمة المحمدية، وتبدّدت الدولة الإسلامية، فإن قبائل العرب لن تقبل قيادة الأنصار لهم، وستستقل كل قبيلة بزعامتها، وكل بلدةٍ بدولتها، وستعود العرب إلى فرقتها وتنازعها، واحترابها وجاهليتها، فلما سمع بذلك أبو بكر وعمر، انطلقا إليهم، مسارِعَين لاستنقاذهم من مغبّة هذه الخطوة، وبيان ضررها، فلما دخلوا عليهم تكلّم الأنصار وذكروا سابقتهم، ونصرتهم ومواساتهم للمهاجرين.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأردت أن أتكلم، وقد زوّرت في نفسي مقالة أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحَدِّ[١]، فقال أبو بكر: على رِسلك يا عمر، فكرهت أن أُغضِبَه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته، أو مثلها أو أفضل، حتى سكت[٢].

فتكلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصدّقا ما قالوا، وكان مما قال على بديهته وهو يوجه الخطاب للأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا: أمّا ما ذَكرتُم فيكم من خير فأنتم له أهل، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا، وما مَثَلُنا ومَثَلُكم إلا كما قال الغنوي:

جزى الله عنّا جعفرا حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلّتِ

هُمُ خلَطونا بالنفوس وأَولجوا ... إلى حُجراتٍ أدفأتْ وأظلَّتِ

أبَوا أنْ يَمَلُّونا ولَوْ أنّ أُمَّنا ... تُلاقِي الّذي يَلْقَون مِنّا لَمَلَّتِ[٣]

ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا، ونحن المهاجرون أوّل الناس إسلاما، وأمسّهم رحما برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، أسلمنا قبلكم، وقُدّمنا في القرآن عليكم، فأنتم إخواننا في الدّين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدوّ؛

(١) أي: من حِدة الْخلق وَسُرْعَة الْغَضَب. يُنظَر: «مشارق الأنوار» للقاضي عياض (١/ ١٨٤).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥٩).

(٣) يُنظر: «الشريعة» للآجري (٤/ ١٦٤٥)، و«معرفة السنن والآثار» للبيهقي (١/ ١٦٠).

آويتم وواسيتم، فجزاكم الله خيرا، نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، وأنتم محقوقون أن لا تنفَسوا[1] على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بينهما[2].

وكانت هذه الخطبة هي التي انتزعت فتيل الفتنة، فحفظ الله الأمة بها من التفرق والاحتراب وشتات الأمر، وجمعت الأنصار على رأي المهاجرين، فاتفقوا على أن يبايعوا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي كانت بيعته عِصمةً لأمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

إن هذا يبين لنا أهمية الخطابة، وأنها أداة تأثير، وسبب إصلاح وتزكية إذا وُضعت في موضعها الصحيح، وأُدِّيَت ببراعة واقتدار.

وكانت الكلمة سلاح الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [ابراهيم: ٤]، وقال عن نبي الله داود: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [سورة ص: ٢٠]، وقال موسى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاخْتُصِرَ لِيَ الْحَدِيثُ اخْتِصَاراً**»[3].

(١) نفِس فلانٌ على فلانٍ خيراً: حسده عليه ولم يره أهلاً له. يُنظَر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشريّ (٢/ ٢٩٢).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥٩)، و«البيان والتبيُّن» للجاحظ (٣/ ١٩٩)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٢٥٤).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٢٣) و«شعب الإيمان» للبيهقي (١٣٦٧)، و«الأحاديث المختارة» للمقدسي (١١٥).

فالخطبة والكلمة سلاح، وهناك خطب غيرت التاريخ، وهناك خطباء صنعوا التاريخ، وللأستاذ أنور أحمد كتاب عنوانه: «خطباء صنعوا التاريخ».

ومن الخطب المشهورة المؤثرة خطبة سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند وفاة النبي ﷺ، حيث سرَتْ شائعة الرِّدّة من بعض سفهاء مكة، فوقف سهيل بن عمرو، وكان خطيب قريش، فقال: يا أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقد نعى الله نبيَّكم إليكم وهو بين أظهركم، ونعاكم إلى أنفسكم، فهو الموت حتى لا يبقى أحد، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ثم تلا: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فاتقوا الله واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وكلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره، ومعز دينه، وقد جمعكم الله على خيركم. يا أهلَ مكةَ، لا تكونوا آخرَ منْ أسلمَ وأولَ منِ ارتدَّ، واللهِ ليتمنَّ اللهُ هذا الأمرَ كما ذكرَ رسولُ اللهِ ﷺ، فلقدْ رأيتهُ قائماً مقامي هذا وحدهُ، وهوَ يقولُ: «**قُولُوا مَعِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، تَدِنْ لَكُمُ الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّ إِلَيْكُمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ، واللهِ لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ**».

فمنْ بينِ مستهزئٍ ومُصدِّقٍ، فكانَ ما رأيتمْ، واللهِ لَيَكُونَنَّ الْباقي. فامتنعَ الناسُ منَ الرِّدَّةِ، ونفع الله قريشًا بهذه الخطبة البليغة الوجيزة، ورجع مَن كانوا يشيعون تلك الشائعة[1].

والعجيب أنه خطب بخطبة أبي بكر التي خطب بالمدينة كأنه سمعها! وكان ذلك تأويلَ قولِ رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم بدر حين أُخِذ سهيلُ بن عمرو أسيراً، وكان خطيب أهل مكة في استنفارهم إلى عِير أبي سفيان في بدر، فقال عمر: دعني يا رسول الله أنزع ثَنِيَّتَيه فلا يقوم عليك خطيبا أبداً. فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهَا، فَلَعلّهَا أنْ تَسُرَّك يَوْمًا**»[2]. فلما بلغ عمر كلامُ سهيلٍ بمكة قال: أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ، وأن ما جاء به حق، هذا هو المقام الذي عنى رسول الله ﷺ[3].

وكما ترشد بعضُ الخطب الجماهير إلى الخير وتقودهم إليه، فإنّ بعضها ربّما يكون سببا لضلال الجماهير، فإنَّ مِنَ الخطباء أئمة مضلين، قادوا الناس إلى المهالك، فهتلر قبل أن يكون زعيما كان خطيبا مؤثراً، ولذلك أقحم الشعب الألماني في مواجهات خاسرة، وفي حروب انتهت بالخراب والدمار والخيبة المريرة.

(١) يُنظر: «الجزء المتمم لطبقات ابن سعد» (٤٣٦)، و«المستدرك» للحاكم (٥٢٢٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٣٦٧) أوردها مختصرةً، و«الكامل» لابن الأثير (٢/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: «المستدرك» للحاكم (٥٢٢٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٣٦٧).

(٣) «الجزء المتمم لطبقات ابن سعد» (٤٣٦).

ومن الخطباء المشهورين خطباء الخوارج، الذين غرروا بالشباب، وقادوهم إلى المهالك، ومن أشهرهم أبو حمزة الشاري، كان زعيمًا لجماعة من الخوارج، يُسمُّونَ أنفسَهم «الشُّراة»، فيزعمون أنّهم يتبعون قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، فَهُمْ يقولون: نحن شرينا أنفسنا لله.

وهذا الرجل قاد هذه الطائفة من الخوارج واحتل مكة، ثم توجه إلى المدينة واحتلها، فعيّره أهل المدينة بأن أصحابه شباب أغرار، فخطب فيهم خطبة بليغة مُلهبة ذكرها الجاحظ في البيان والتبيُّن على أنها أحد أمثلة البلاغة الفائقة، وبلاغته فيها تبين لنا كيف استطاع هذا الخطيب القائد أن يجمع هؤلاء الشباب الأغرار ويفعل بهم الأفاعيل، فقد قال أبو حمزة: يا أهل المدينة، تعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا؟! نعم، شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الحرام أعينهم، بطيئة عن الشر أقدامهم، أنضاء عبادة، وأطلاح سهر، موصول كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوِّقت، ورماحه قد انتُضيت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت وأبرقت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فلقوا شبا الأسنة، وشائك السهام، وحدَّ السيوف بوجوههم، وصدورهم ونحورهم، ومضى الشاب هنالك قدمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه فخر صريعًا في الثرى، وخُضِبت محاسن وجهه بالدماء، وأسرعت إليه سباع الأرض، وانحط إليه طير السماء،

فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خشية الله! وكمْ من يد أبينت عن ساعد طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده لله! وكم من خَدٍّ عتيق قد فلق بعمد الحديد! فرحم الله تلك الأبدان وأدخل أرواحهم الجنان[1].

لاحظ هذا الكلام البليغ والذي صاغه في لوحات بلاغية، وصور فنية مؤثرة، حتّى كأنك ترى هؤلاء الشباب رأي العين وهم منطلقون إلى المعارك، يستقبلون بنحورهم الرماح، وكأنك ترى أشلاءهم وقد تناثرت على الأرض، وترى عيونهم في مناقر الطير، وأكفهم في أفواه السباع، وبهؤلاء كان يفاخر أبو حمزة الشاري، وبمثل هذا الخطاب كان يستميل هؤلاء إلى طريق الخوارج، وهي طريق زيغ ومهلكة، لكن كان سلاح التأثير وأداة الإغواء هو الخطبة البليغة.

وقد استمعت قديماً إلى تسجيل خطبة لأحد زعماء جماعات الغلوّ يستنفر فيها الشباب فيستثير حماسهم بكلمات ملتهبة تستغوي الشباب الأحداث، وتقودهم معصوبي الأعين مع جماعات الغلو القتالية.

ثم رأينا كيف دفعت هذه الخطب شباباً أغرارا وقذفت بهم حطباً في حرائق القاعدة وداعش التدميرية.

(١) يُنظر: «أخبار مكة» للفاكهي (٣/ ١١٧ ـ ١١٨)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربِّه (٤/ ٢٢٨).

وإذا كان هذا ما نقوله عن الخطب وتأثيرها فنحن الآن مع تغير المؤثرات وكثرتها نرى أن الخطبة لا تزال هي السلاح المؤثر في الانتخابات، وفي البرلمانات، وفي المحاكم والمرافعات.

والذي ينظر إلى تنافس الرؤساء في الانتخابات الأمريكية يجد أنهم خطباء ناجحون، ومن أشهرهم في هذا الرئيس ريجان وكلينتون وأوباما.

ومن أشهر الخطب خطبة مارتن لوثر كنج: «لدي حلم»، وخطب مالكوم إكس، ونحوهم من الخطباء المؤثرين، فلا تزال الخطبة سلاحًا وأداة تأثير، ولها سطوتها وأثرها وتأثيرها.

خطب الجمعة

إننا نشتكي كثيراً من سيطرة الآخرين على الإعلام، وهذا صحيح، بَيْدَ أنه ليس كلَّ الحقيقة، لأن هذه السيطرة هي أحد أخطائنا الاستراتيجية العَصِيَّةِ على العلاج، أما الشِّقُّ الآخرُ من الحقيقة فهو أن الميدان الذي نملكه واسع أيضـًا، ولكنا أخفقنا في استثماره.

والحق أن سندنا الأقوى هنا هو الدين، فالدين هو الذي ساق هذه الملايين إلى ساحة الخطبة طوعـًا واختياراً.

والدين هو اللغة المشتركة بيننا وبينهم، فباسمه نتحدث، وباسمه يستمعون[١].

وإذا نظرت إلى خطبة الجمعة الأسبوعية شعرت أنها هي الذراع الإعلامي والعلمي للإسلام، ولذلك عظّم الله شأنها، فأوجب السعي إليها، وحرَّم البيع والشراء عند النداء لها، وأوجب الإنصات لها، وحرّم على الحضور أن يكلم أحدهم أخاه ولو نهيـًا عن منكر،

(١) «الخطاب الدعوي» للشيخ سلمان العودة (٢٣/ ٧٣ ـ ٧٤).

فقال ﷺ: «**إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَغَوْتَ**»[1]. بل نهاهم عن كل ما يوحي بالتشاغل كمسّ الحصى، فقال ﷺ: «**وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا**»[2].

ومن عظمة خطبة الجمعة أن الله أضافها إليه وسماها ذكراً له، فقال: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وأوجب على المسلم حضور كاملِ الخطبة، وعدم الانقطاع عنها.

واختار لها أحبَّ الأماكن إليه، وهي المساجد، وخير الأيام عنده، وهو يوم الجمعة، «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ**»[3].

وأمر بالاستعداد لها اغتسالاً وتطيّباً مراعاةً للاجتماع العام، وليكون هناك تهيؤ قبلها لها.

وتأثير خطيب الجمعة المتميّز أقوى من تأثير الصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، لأن الخطيب يتحدث إلى الناس مباشرةً بكلماته، ونبرة صوته، ولحظِ عينيه، وتعابير وجهه، فيلامس عقولهم وقلوبهم، ويستطيع بكل ذلك أن يؤثر فيهم، يقول إرشاداً وتوجيهاً ما لا يؤثر غيره[4].

وكل هذه الأحكام تبين مكانة خطبة الجمعة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٣٤)، و«صحيح مسلم» (٨٥١).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٧).
(٣) «صحيح مسلم» (٨٥٤).
(٤) «صناعة خطيب ماهر» أحمد بن ناصر الطيار (١١).

«والخطابة في الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب، ويثِبُ من فكر إلى فكر، ويتنقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر، وذاك هو السر في أن نبي الإسلام كان يخطب كل أسبوع وكل عيد، ويخطب أو ينيب عنه أميراً يخطب في وفود الحجيج.

إن الإسلام دين حي، ومن دلائل حياته وامتداده أن رسوله وخلفاء رسوله كانوا باستمرار يصلون أمداد الوحي بين الناس، فما يضعف صوت السماء وما ينقطع مع هدير الخطيب الذي يتحدث باسم الله، بين عباد الله»[١].

وإذا كان شأن خطيب الجمعة كذلك، فإن على الخطيب أن يأخذ لهذا الأمر عدته، ويتأهل له بما ينبغي له، ولذلك أقيمت الدورات وكُتِبت الكتب، لتُذكِّر بالمؤهلات التي تساعد الخطيب على أن يكون مؤثِّراً ومُغَيّراً، وبانيـاً لنفوس الناس، ومصحِّحـاً لتصوراتهم، ومقوّمـاً لسلوكهم.

ولنتعرف على أهمية ذلـك ينبغي أن نتذكر أننـا في عصرنا هـذا نعيش زحاما معرفيا من كثرة ما يُطرح على الناس، وزحاما في وسـائل التأثير، وضجيجا صاخبا في وسـائل التـواصـل، وما عـاد المؤثرون هم الخطباء وحـدَهـم، فقد اتسعت مساحة التأثير إلـى الأفـلام والمهرجانات ونـجـوم وسـائـل الـتـواصـل، وغيرها،

(١) «مع الله» للشيخ محمد الغزالي (٢٩٦).

فهذا كله يضاعف المسؤولية على خطيب الجمعة ليكون خطابه حاضراً ومنافسـًا، فليس كل خطاب سيؤثر في الناس، ويشد الانتباه، وإنما يشدّهم الخطاب الذي قد أخذ صاحبه بوسائل التأثير، وأحسن إيصال أفكاره ببلاغة خطابه، وطريقة إلقائه.

ولعل مما يحسُن أن يُذكر هنا، أن كليات اللاهوت التي تدرّب المبشّرين بالنصرانية ليس لديها مضمون علمي لاهوتيّ كبير، ولكنّ أكثر ما تُعلِّمه هو مهارات التواصل: كيف يكون الخطيب مؤثراً؟ كيف يكون المحاور مُقنعـًا؟ كيف يكون التواصل؟ كيف يكون التعامل مع وسائل الإعلام وغيرها؟، لأن هذه المهارات ضرورية في التأثير على الناس، وكذلك خطيب الجمعة فمع وجود المضمون الكبير والكثير لديه لا بُدَّ أن يكون عنده المهارات البلاغية، والمهارات الإلقائية، متمكّنـًا من هذه الوسائل، ليكون مُقنعـًا ومؤثِّرا.

ولا بد أن يكون لدى الخطيب قناعة راسخة أن الخطبة أداة من أدوات التأثير القوية، وأن عليه أن يملك أدوات الاقتدار الخطابي حتى يؤثر بها، أمّا إذا سمعت الخطيب يقول: الناس شبعوا كلامـًا، الناس استمعوا إلى خطب كثيرة، ماذا تنفع الخطب؟، فاعلم أنه إنما يسوق المعاذير لعجزه وكسله عن اكتساب قدرات التأثير، فإن الله ما شرع خطبة متكررة كل أسبوع إلا لأن لها أثراً وتأثيراً، وللناس إليها حاجة، وإلا فلماذا يتعبدهم الله عَزَّوَجَلَّ أن يتركوا بيعهم وشراءهم ومعاملاتهم عندما يسمعون النداء ليوم الجمعة ويأمرهم بالحضور إليها بإنصات وإصغاء؟!

إلا لأن الخطبة من وسائل التأثير القوي، لكن الشأن في الخطيب الذي عليه أن يبذل جهده في تحصيل مهارات التواصل، ومهارات الاقتدار الخطابي حتى يُبلّغ عن الله، كما يليق بكلمات الله ورسالته.

الرسول ﷺ خطيباً (١)

هكذا سرت المقالة بين شباب الأنصار بشيء من العَجَب وشيء من العَتَب، وذلك بعد أن قسم النبي ﷺ غنائم حنين، ورأوه يعطي زعماء قريش ورؤساء القبائل المئات من الإبل، ولم يعطهم شيئاً، وهم الذين كانوا معه في شدة القتال، وهم الذين دُعوا ساعة الخطر فكان النداء في معركة حنين: «**يَا لَلأَنْصَار يَا لَلأَنْصَار**»[(١)]. وبثباتهم تغير ميزان المعركة، وتنزَّل النصر، إذن كيف نُدعى وقت الشدة، ونؤخَّر وقت الغنيمة؟! يغفر الله لرسوله، كيف يعطي هؤلاء الذين كنا نحاربهم، ونُترك نحن وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!.

هكذا سرى الحديث بين بعض شباب الأنصار حتى وصل إلى النبي ﷺ، فتفاعل مع هذه المقالة وتأثر بها، ونادى الأنصار وجمعهم في خيمة كبيرة، وأعلن أن لا يدخلها إلا أنصاريّ، ليُشعرهم بالخصوصية، وليقول لهم ما لا يقوله لغيرهم، فلما اجتمعوا إليه وقف فيهم خطيباً فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ؟**».

---

(١) يُنظر: «تاريخ الطبري» (٣/ ٧٥).

فقال كبارهم: أما كبارنا فلم يقولوا شيئًا، وأما شباب حديثةٌ أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله، يعطيهم ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمْ اللهُ بِي؟**». قَالُوا: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: «**أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «**وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «**وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ. كلما قال شيئا قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ.

وإذا بالنبي ﷺ يستثير مشاعرهم، ويقرأ ما توقَّع أن يخطر في خواطرهم: هل قال بعضهم في نفوسهم: ألم نصدقك يوم كذّبوك؟ ألم نُؤوِك يوم طاردوك؟ ألم نقاتل معك يوم قاتلوك؟ هل عبر هذا الخاطر في خواطرهم؟ هل سرب هذا الشعور إلى مشاعرهم؟ وإذا بالنبي ﷺ يفاجئهم فينطق بما تلجَّجت به المشاعر، ويعلن ما يمكن أن تكون أضمرته الضمائر، فيقول: «**أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟**». قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ وَللهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، فقال ﷺ كلمات هي كالرعد القاصف، قالها بتأثر، فأثّرت، واختلجت القلوب، واستثارت المشاعر، لقد قال عنهم ما لم يقولوه، فقال: «**أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ**».

يا لله! إن النبي ﷺ لم يتخذ دور القاضي بينهم، ولكن دور المحامي عنهم، فيحتج لهم، ويذكّرهم بفضلهم الذي لم يذكروه، ويقول عنهم أكثر مما يمكن أن يقولوه، إن كل ما أسلفوه حاضر في ذاكرة النبي ﷺ وذِكره، فغمرهم الفرح والامتنان لرسول الله ﷺ لهذا الوفاء وحُسن العهد، فضجّوا جميعاً وَقَالُوا: بَلْ لِلهِ الْمَنُّ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ قُرَيْشًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِجَاهِلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ، وَإِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْبُرَهُمْ وَأَتَأَلَّفَهُمْ، فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً لِأَنَّهُمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ إِلَى بُيُوتِهِمْ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَلِنِسَاءِ الْأَنْصَارِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ كَرِشِي وَعَيْبَتِي**[(١)]، **وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، الْأَنْصَارُ شِعَار، وَالنَّاسُ دِثَارٍ**[(٢)]»[(٣)]. فتأثر الأنصار غاية التأثر وبكوا حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا.

---

(١) كرشي وعَيْبَتي: أَرَادَ أَنَّهُمْ بطانَته وَمَوْضِعُ سِرِّه وأمانَتِه. يُنظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ١٦٣).

(٢) الشعار: هو اللباس الداخلي الذي يُلامس الجسد، والدِّثار هو الغطاء الخارجي الذي يكون بعده، وهذا التشبيه يبيِّن أن الأنصار هم الأقرب إليه، والألصق به.

(٣) يُنظر: «صحيح البخاري» (٣١٤٧، ٣٧٧٨، ٣٧٧٩، ٤٣٣٠، ٤٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٥٩، ١٠٦١)، و«جامع الترمذي» (١٢٥٩٤).

وإنك لَتتخَيَّل هذا المشهد حتى لَتكاد تشعر بخفقان قلوبهم، وترى تقاطر دموعهم، وتسمع ضجيج نشيجهم، يا الله! هل طفر في قلبك شيء مما طفر في قلوبهم؟! وهل ذرف من عينيك بعض ما ذرف من دموعهم؟! وهل اقشعرّ بدنك كما اقشعرّت جلودهم؟!.

لقد عرفوا عظمة ما أُوثروا به، وضآلة ما أُرضي به غيرهم، شعروا بالزهو أن النبي ﷺ اختارهم وآثرهم بنفسه، واسترضى غيرهم بالشاة والبعير.

وهذه الخطبة النبوية عجيبة من عجائب البيان، ومدرسة في علم نفس المشاعر والانفعالات.

لقد كنت أعجب أن النبي ﷺ لم يقل لهم: ألم تروا أني لم أعطِ أحداً من بني هاشم، ولم أعطِ أحداً من المهاجرين، ولم أعطِ أبا بكرٍ ولا عمرَ ولا عثمانَ ولا عليّاً، ولكن النبي ﷺ لم يقل ذلك، لأن هذه محاجّة، وليست إقناعاً، لكن النبي ﷺ نفذ إلى أعماق النفوس، واستثار كوامن الشعور، وقال عنهم ما لم يجرؤوا على قوله.

ولا أستطيع تخيل مشاعرهم ورسولُ الله يتحدث عنهم بلسانهم: **«أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ»**.

كيف احتملت نفوسهم تلقي هذا الثناء، وحسن العهد، وجميل الذكر من رسول الله ﷺ حين يسمعونه يذكر سابقتهم، ويذكّر بها، ويحفظها لهم! وهو الذي ما نسيها، وكان هذا أعظم من كل عطاء،

وأبلغ من كل ثناء، وكان هذا وحده كفيلاً أن يزيل ما عبر نفوسهم من عتب عارضٍ، ولكن النبي ﷺ أتمّ خطبته، وبيّن لهم كيف قسم قسمته، وأعطى عطاءه، لقد استرضى حديثي العهد بالإسلام بما يرضيهم، من إبل وغنم، أما الأنصار فأعطاهم نفسه، فاختارهم أهلاً ووطناً، وشعاراً يلامس جسده، ولا يماسُّه شيء قبله، وبذلك تبين لهم أن مؤهلات هذه القسمة ليست الفضل والسابقة، ولكن الحاجة إلى التألّف والمداراة، فهؤلاء أُعطوا ليتمكّن الإسلام من قلوبهم، وأما أنتم فمكانة الإسلام في نفوسكم أمكن من أن تحتاج إلى تألّفٍ ومداراة.

وأن هناك قسمة أخرى أُوثرتم بها على غيركم، فلكم رسول الله ﷺ، ولغيركم الشاة والبعير.

وهنا ظهر لهم عظمة ما أُوثروا به وتميّزوا به على غيرهم، فإحدى نعلي النبي ﷺ خيرٌ من مئات الإبل التي قُسمت لو قُسمت لهم، فكيف ونصيبهم من القسمة رسولُ الله ﷺ كلُّه، يسير معهم حيث ساروا، وينزل معهم حيث نزلوا، ويولجونه بين بيوتهم إذا وصلوا، تُعطِّرهم أنفاسُه، وتغشاهم أنوارُه، وتغمرهم بركته؟!

يا لله! أين إبل أصحاب الإبل وأغنام أصحاب الغنم؟! لقد ذهبت سريعاً وفنيت جميعاً، وبقي للأنصار رسولُ الله ﷺ، هو حظهم ونصيبهم وقَسْمهم.

وكيف كان هؤلاء الشباب ينظرون بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ بزهوّ، ويرمقونه بحُبّ، وهم يسيرون معه في المدينة إذا سار،

ويجلسون معه إذا جلس، ويصلّون خلفه إذا صلّى، ويتذكرون أن كل القبائل غيرهم قد تفرّقت إلى ديارها، وبقي رسول الله ﷺ معهم ولهم، اختارهم كما اختاروه، وأحبَّهم كما أحبّوه، فهم الأقرب إليه والناس من ورائهم، وهم الأحب إليه والناس بعدهم.

إنك لَتعجب لهذه الخطبة القصيرة في زمنها، القليلة في كلماتها، والتي جمعت هذه المعاني، وحشدت هذه المشاعر، وأزالت العَتَب، ورفعت الموجِدَة، وأفضت بالقلوب إلى القلوب.

إنَّه صدق اللهجة، وبلاغة الخطاب، وتجلية الموقف بنصاعة وجلاء، وهكذا كان النبي ﷺ خطيباً، وهكذا كانت خُطَبُه ﷺ بلاغةً وتأثيراً.

الرسول ﷺ خطيباً (٢)[١]

قام ﷺ يومًا خطيبًا فجعل يقول في خطبته: «**أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ**» حتى علا صوته، فسمعه مَن في السوق، وحتى سقطت بُردة كانت على عاتقه عند رجليه[٢].

إن هذا المشهد في مقام النبي ﷺ ذلك يبين مدى الانفعال والتفاعل منه ﷺ في خُطبه مع ما يقول، وهذا الانفعال دليل من دلائل النبوة، فإنه يبيِّن تشبعه بما يقول، وعظيم يقينه به، حتى يظهر منه هذا التأثر والانفعال.

وقد لاحظ الصحابة هذا التأثر منه في خُطَبِهِ فوصفوه بأنه كان إذا خطب علا صوته، واحمرت عيناه، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[٣].

---

(١) من كتاب: «الحياة النبوية» للمؤلف (٢/ ١٩٤).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

وكما يدل هذا على يقين النبي ﷺ بما يقول، فإنه يدل على خطر الأمر الذي يتكلم فيه، حتى تأثر هذا التأثر وانفعل هذا الانفعال.

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندي وللقلوب بكاء

وإذا نظرنا إلى خطبه ﷺ فإنا سنلاحظ فيها معالم جامعة، منها:

١ـ لقد كان حال النبي ﷺ وهو يخطب حال المستنقذ الذي يريد انقاذ الناس من هلكة يخشى أن يقتحموها، ولذا كانت نذارته بهذا التأثر، وهذه الحرقة، حتى كأنه منذر جيش يصيح بقومه ويُنذرهم، قبل أن يباغتهم عدوهم، وهكذا وصف أصحابه حاله تلك وهو يخطب: كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**».

لقد كان ﷺ يذيب نفسَه مع أنفاسه وهو يخطب، فتخرج كلماته متضمنة صدق اللهجة، وحرارة العاطفة، وشدة التأثر والانفعال، خطب في منى فكان يتطاول ليُسمِعَ الناس ويقول: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟**»[1] يطول بها صوته وينادي: «**يَا أُمَّتَاهُ، هَلْ بَلَّغْتُكُمْ؟**» حتى قال صبي كان واقفًا مع أمه: يا أمَّه، ما له يدعو أمَّه؟ فقالت: يا بني إنه لا يدعو أمه، إنما يعني أمته[2].

إنك تستشعر في هذا النداء لوعة المشفق، ونداء المستنقذ حتى تأثر هذا الصبي وهو يسمع نداءه، فكيف بتأثر الذين عقلوا كلامه ووعوه، وأحست قلوبهم حرارة النداء، ولهفة المناشدة!.

(١) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٤/ ٢١٠).

قال أنس: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً**»، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين من البكاء[1].

إن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه يعلم ما لا يعلمون، ولم يفصل لهم ما يعلم، ولكن انفعاله وتأثره كأنما هو تفصيل وبيان لهذا الأمر المهول الذي يحذرهم منه، ولِذا أثر فيهم هذا التأثير حتى غطوا رؤوسهم ولهم نحيب بالبكاء.

إن صدق اللهجة، وشدة التأثر والانفعال تنتقل إلى المستمع حتى كأنما يرى ما يسمع، ويعيشه بوجدانه وأحاسيس قلبه، وهكذا كان الصحابة وهم يسمعون خطب النبي ﷺ المتأثرة المؤثرة.

٢ـ كان من أعظم ما يميز خطب النبي ﷺ أن لها رصيداً مشهوداً مشهوراً من واقع حاله، فإذا تكلم بأمر فإن فعله قد سبق قوله، وكانت طلائع الصدق تشرق من مُحَيَّاه الكريم، وحالهُ الشريفةُ تُصَدِّقُ ما يقول وتؤكده، فعندما خطب على الصفا وناشد قريشـًا قائلاً: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**». قالوا جميعـًا: نعم، ما جربنا عليك إلا صِدقـًا[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨).

وعندما قدم المدينة جاءه عبد الله بن سلام فوجده يخطب الناس، قال عبد الله بن سلام: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ جاءه، فَلَمَّا رأيتُ وَجْهَهُ واستبَنْتُه عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ[1].

ولما وقف في حجة الوداع يخطب يوم عرفة يضع للناس معالم استئناف الحياة بعد الجاهلية قال: «**أَلَا وَكُلُّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دِمَائِكُمْ دَمُ إِيَاسِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مِنْ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ**»[2].

فلا يأمر بخير إلا وقد تمثل فيه، ولا ينهى عن سوء إلا وهو أبعد الناس عنه، لقد كانت حاله تتحدث قبل مقاله، ولِذا كان لكلامه وقعه على القلوب، وتأثيرُه في النفوس.

٣ ـ كان إذا خطب أقبل على الناس بوجهه وأقبلوا عليه بوجوههم، وذلك لأهمية التواصل البصري بين الخطيب والحضور عنده، حتى تصل رسالته محفوفة بانفعالاتها وطرائق التعبير عنها، ولذا رمق الصحابةُ احمرارَ عينيه، وحركة إصبعه المسبحة يدعو بها، وإشارته بإصبعيه السبابة والوسطى وهو يقول: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»[3].

(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٣٤).
(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٩٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥١).

ولأهمية التواصل البصري كان ﷺ يبرز للناس ويعلو لهم حتى يروه جميعًا؛ ولذا خطب على الصفا[١]، وخطب على الناقة في عرفة[٢]، وخطب على البغلة في منى[٣]، ولما كثر الناس في مسجده اتخذ المنبر بثلاث درجات[٤]؛ حتى يبرز لمن بَعُد عنه.

بل إنه عندما خطب يوم عرفة على ناقته القصواء أمكن قدميه في الغرز، واعتمد بإحدى يديه على مقدم الرحل وبالأخرى على مؤخرته، يتطاول بذلك للناس حتى يشرف لهم جميعًا[٥].

إن في حال الخطيب أثناء الخطبة مزيد بيان مع بيان كلامه يوضح مقصده، ويبلغ رسالته، ولذا كان ﷺ يشرف للناس على ما يرفعه إليهم كراحلته ومنبره، لِيَتِمَّ هذا التواصل بينه وبين أصحابه حالَ خطبته.

٤- وكانت خُطَبُه نوعَين، راتبةً كخطبة الجمعة والعيدين، وعارضةً لسبب عارض يدعو إليها، كخطبة الكسوف، وخطبته حين قدم عليه وفد مضر، فرأى ما بهم من الفاقة والحاجة، فخطب الناس كما قال جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ نَاسٌ مِنْ الْأَعْرَابِ حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مُجْتَابِي النِّمَارِ[٦]،

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٧٠)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦).

(٢) «سنن النسائي» (١٥٧٣).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٥٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٤).

(٥) «مسند أحمد» (٢٢٢٥٨).

(٦) مُجْتَابُو النِّمَارِ: لابسو نوعٍ من المآزر المخطَّطة التي كان يلبسها الأعراب. يُنظر: «النهاية» (٥/ ١١٨).

مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَراً صَغِيراً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَوَلَداً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟. فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟. فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَراً؟، فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟. فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ، وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ يَنْظُرُ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ**»، ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقُوا النَّارَ**»، ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اتَّقُوا النَّارَ**»، ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**»، حَتَّى قَالَ: «**مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[1].

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧).

وخطبته حين جاء ابن اللُّتْبية بالصدقات فقال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، فقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَجِيءُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أُمِّهِ أَوْ أَبِيهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً فَلَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً فَلَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبِطَيْهِ[1]، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**»[2].

وهذه الخطب هي التي يتفاعل فيها النبي ﷺ مع الحوادث، ويعلق فيها على الأحـداث، فتقع الخطبة مرتبطة بالحدث الذي يوضحها، ويعمق أثرها، مثل سبب النزول للآية، ومِن ذلك خطبته عندما شفع أسامة في المرأة المخزومية، فقال له: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟**»، ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[3].

وربما كانت خطبه العارضة موعظة يذكرهم فيها، وهذه مما كان ﷺ يتخولهم فيه ولا يُكثر عليهم كما قال ابن مسعود: يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا[4].

---

(١) عفرة إبطيه: أي بياضهما.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (١٨٣٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٤٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٦٨٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١).

٥- كان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[١] أو قوس[٢]، وكان يخطب في مسجده إلى جذع يعتمد عليه قبل أن يتخذ المنبر[٣]، وبعد اتخاذ المنبر صار يعتمد إذا جلس على رمانة المنبر الشرقية، وتسمى الصلعاء.

واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[٤]، كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه إذا مشى[٥] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[٦].

٦- كان ﷺ يتجمَّل في لباسه لخطبة الجمعة، فعن عبد الله مولى أسماء قال: أخرجت إلي أسماء رضي الله عنها جبة من طيالسة كسروانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه جبة رسول الله ﷺ كان يلبسها للوفود ويوم الجمعة[٧].

ولما رأى عمر رضي الله عنه حلة حرير تباع عند باب المسجد أخذها فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لو اشتريتها فلبستها للعيد

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).
(٢) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).
(٣) «صحيح البخاري» (٩١٨).
(٤) ينظر: «البيان والتبيُّن» للجاحظ (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).
(٥) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).
(٦) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٢٠).
(٧) «الأدب المفرد» للبخاري (٣٤٨)، و«صحيح مسلم» (٩١٨).

وللوفود إذا قدموا عليك، ولبستها يوم الجمعة[1]، فَعَرْضُ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يشتري هذه الحلة الجميلة ليلبسها يوم الجمعة لِـمَا عَلِمَ من حاله في التجمل ليوم الجمعة.

والتجمل من الخطيب لخطبة الجمعة تعظيم للشعيرة، واحترام للحاضرين بأن يظهر أمامهم على هيئة حسنة جميلة تليق بالموقف الذي يقفه أمامهم.

(١) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

الرسول ﷺ خطيباً (٣)[١]

١- كان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين بعد الحمد والثناء، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ**»[٢].

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمـًا... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله[٣]، وقالت أم هشام بنت حارثة بن النعمان: ما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١] إلا من فيِّ رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٤].

وذلك لما في سورة «ق» من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

---

(١) من كتاب: «الحياة النبوية» للمؤلف (٢/ ٢٠١).

(٢) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٧٣).

٢- كانت خطبه يوم الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

فيملأ القلوب إيمانا بالله وتعظيمًا وإجلالا له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكِب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء[١].

ولعل هذا هو ما يفسر عدم نقل خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ في المدينة مع أنها نحو من خمسمئة خطبة، وذلك لأنها مواعظ عامة تؤكد على قضايا كبرى تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

ويوضح ذلك حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[٢].

(١) يُنظر: «صحيح البخاري» (٤٦٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧).

فنلاحظ أن العرباض بن سارية ذكر بلاغة الموعظة وأثرها، ولكن لم يذكرها وإنما ذكر الوصاة بعدها، وذلك لأنها وعظ بالتذكير بما هو مذكور في غيرها من الآيات والأحاديث.

بينما نَقَل الوصاة بعدها لأن فيها معنى خاصاً، وحُكماً، وتوجيهاً مفصلاً.

٣- كان ﷺ يوجز الخطبة ويختصرها، ولا يطيلها، كما قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الخطبة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات[١]. وكان يقول: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً**»[٢].

وكانت خطبه تجمع بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني، وتصوير المعاني والمشاهد، فكانت تزيد الإيمان وتقوي اليقين، حتى كأن الآخرة رأي عين، ومن ذلك خطبته حين كسفت الشمس، كما في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرْكَباً فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ، فَانْكَسَفَتْ الشَّمْسُ فخرج فصلى بالناس فَفَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ، وَقَدْ انْجَلَتْ الشَّمْسُ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِمَا عِبَادَهُ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا كَذَلِكَ،**

(١) «سنن أبي داود» (١١٠٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٦٩).

فَافْزَعُوا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَادْعُوا اللهَ، وَكَبِّرُوا، وَصَلُّوا، وَتَصَدَّقُوا حَتَّى يَنْجَلِيَا». ثُمَّ قَالَ وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، أَظَلَّتْكُمْ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»، ثم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، فَعُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُوداً حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، فَقَصُرَتْ يَدِي عَنْهُ وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، ثُمَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ جَهَنَّمُ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ أَتَّقِيهَا مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ»، قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللهِ؟، قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ. وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَهُ[1] وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تُعَذَّبُ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَهِيَ إِذَا أَقْبَلَتْ تَنْهَشُهَا، وَإِذَا أَدْبَرَتْ تَنْهَشُهَا، وَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ مُتَّكِئًا عَلَى مِحْجَنِهِ فِي النَّارِ، يَقُولُ: أَنَا سَارِقُ الْمِحْجَنِ وَكَانَ يَسْرِقُ الْحَجِيجَ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: لَسْتُ أَنَا أَسْرِقُكُمْ، إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ،

(١) قُصْبَهُ أي: أمعاءه.

فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا، وَآمَنَّا، وَاتَّبَعْنَا ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَيُقَالُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنَّكَ لَتُؤْمِنُ بِهِ، فَنَمْ صَالِحاً، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُهُ، فَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْمَوْتَى لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَاباً تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ[1].

٤- ربما جمعت خطبته ﷺ على وجازتها أحكاماً كثيرة، وأموراً متعددة، خصوصاً خطبه في المجامع العامة، كخطبته في عرفة، وخطبته يوم النحر، فإنه ذكر فيها أحكاماً ووصايا كثيرة، وذلك أنه قد أوتي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً، فيذكر كل هذه الوصايا بأبلغ عبارة وأوجزها، ويتفرق الناس وقد حفظ كل منهم ما وعاه وكان الأهم عنده، فجميعها مجموع في رواياتهم، وإن لم يجمعها راو واحد منهم.

٥- ومع إقباله على خطبته، وإقبال الناس عليه فيها إلا أنه لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة والوقار الشديد المتكلف، ولم تكن مهابته تمنع أحداً أن يكلمه وهو يخطب،

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٥٨٦).

ولم يكن وقاره يمنعه أن يكلم أحداً وهو يخطب، أو يقطع خطبته لعارض يعرض له ثم يرجع فيتمها، فقد كان ﷺ يخطب يوم الجمعة فجاء سليك الغطفاني وهو يخطب فجلس فقال له: «**يَا سُلَيْكُ، قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا**»[1]، وكان يخطب يوماً على المنبر فدخل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل ﷺ فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: «**صَدَقَ اللهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن: ١٥]، **فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»[2]. ثم أخذ في خطبته فأتمها.

وكان ﷺ يخطب مرة يوم الجمعة فدخل أعرابي فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال، وجاع العيال، وانقطعت السبل، فادع الله تعالى أن يسقينا.

وبأبي وأمي رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الأعرابي الذي لم يجلس فيستمع ثم يكلم النبي ﷺ بعد أن ينهي خطبته وصلاته، وإنما بادر بحاجته وقطع على النبي ﷺ خطبته، فما أغضب ذلك النبي ﷺ ولا أحفظه وإنما بادر بالاستجابة لهذا الأعرابي، واستشعر حاجته التي ألجأته لذلك، ورفع يديه يدعو ويستغيث حتى نزل المطر قبل أن ينزل هو عن منبره ﷺ[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٧٥).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

ودخل تميم بن أسد المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فتوجه إليه وقال: يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه ولا يدري ما دينه؟، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليه، فأُتي بكرسي قوائمه من حديد فقعد عليه وجعل يعلمه مما علمه الله، فلما فرغ أتى خطبته فأتم آخرها[1].

إن أشق شيء على الخطيب أن يقاطعه أحدٌ، أو يقطع عليه خطبته، ولكن نبينا ﷺ يتلقى هذا السائل الغريب بهذا الاهتمام والحفاوة، فيقطعُ الخطبة ويأتي هو إليه، ولم يستدعِه نحوه، ثم يجلسُ على كرسي حتى يسمع الناس حوله حوارهما، فيتعلمون جميعًا، فيستمع إليه ويعلمه، حتى إذا فرغ عاد إلى خطبته فأتمها.

إنه مشهد من مشاهد عظمة خُلُقه ﷺ وعظيم رأفته ورحمته بالمؤمنين.

وكان ﷺ يخطب الناس في منى في أوسط أيام التشريق على بغلة شهباء وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائم يبلغ الناس عنه، والناس حوله بين جالس وقائم، قال رافع بن عمرو المزني، وكان حينها غلامًا صغيراً: فأقبلت أنا وأبي فجلس أبي مع الناس، وتخللت الركاب، حتى أتيت البغلة التي كان النبي ﷺ يخطب عليها، فأخذت بركابها ووضعت يدي على ركبته فمسحت الساق حتى بلغت بها القدم، ثم أدخلت كفي بين النعل والقدم، فيخيل إلي الساعة أني أجد برد قدمه على كفي[2].

(١) «صحيح مسلم» (٨٧٦).

(٢) «سنن النسائي الكبرى» (٤٠٧٩)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٤٤٥٨).

ولئن عجب رافع من برد قدم النبي ﷺ فإننا لنعجب من تلك النفس الرضية، حيث يمضي النبي ﷺ في خطبته ويدٌ صغيرة تشاغله بالمسح على ساقه والعبث بما بين قدمه ونعله، ولم يستفزه ذلك فينهر الصبي أو ينظر إليه شزراً أو ينادي أباه ليبعده عنه، وإنما ترك الصبي وشأنه وأقبل هو على خطبته فهي همه وشأنه.

وإني لأحسب الناس حول النبي ﷺ منصتين بآذانهم إلى بليغ قوله، ومشرئبين بأبصارهم إلى جميل فعله.

لقد كان تعامل النبي ﷺ مع الصبي في مقامه ذلك خطبة أخرى مع خطبته التي يلقيها تحكي للناس كيف يكون حسن التعامل، وكيف تكون عظمة الخلق.

إن هذا يبين أن هذا النبي الكريم ﷺ لم يكن يخطب كما يخطب الجبارون والمتكبرون، والذين يهمهم الحفاظ على رسومهم ومراسم هيبتهم، لكنه كان يخطب داعيا وهاديا، حتى في هذا المقام يَظْهر حسن تعامله وتواضعه ولين جانبه واستيعابه لحاجات الناس وتفهمه لظروفهم وطبائعهم، ولذا يقطع الخطبة لعثرات صبي جاء يمشي إليه، ولغريب جاء يسأله، ولمجهود جاء يطلب دعاءه.. فيسعهم جميعا خلقه وبره، بل إنه ﷺ كان يخطب أصحابه يوم جمعة فجاءت قافلة من الشام تحمل طعاماً فانفض الناس إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ [الجمعة: ١١][1].

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).

ومع ذلك لم ينقل أن النبي ﷺ عاتبهم أو لامهم أو دعا أحداً منهم فساءله أو وبخه، وإنما اكتفى بالعتاب القرآني اللطيف: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

إنه ﷺ الداعية الذي يحمل في قلبه محبة الخلق، والرحمة بهم، والحرص على هدايتهم، وتفهّم ما يعرض للنفوس البشرية من ضعف ونقص يسدد بالتربية الحكيمة والتوجيه الهادئ الرفيق.

لقد كان ﷺ يذيب نفسه في كلماته إذا تكلم لشدة تأثره بما يقول، ولذا وقعت خطبه من القلوب موقعها، وأثرت أثرها، وتنزلت كلمات خطبه على النفوس غيثا أحياها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.

تجربتي في الخطابة

عُيِّنت خطيباً في جامع الملك عبد العزيز بالرياض عام (١٤٠٤هـ)، وكان إعداد الخطبة معاناة أسبوعية، وكان أشق شيء عليَّ فيها اختيار الموضوع المناسب، ثم اختيار المدخل المناسب، ثم أجمع كل ما أستطيع جمعه من مواد مقروءة أو مسموعة، حتى تختمر وتكتمل الفكرة.

وأكثر ما كان يفيدني في الإعداد إعمال الذهن في الموضوع، ثم الحديث فيه مع من يتناغم مع فكري ويشاركني الاهتمام، وكان أكثر من يسعفني في ذلك أخي عبد العزيز الماجد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكانت مذاكرته للموضوع إثراءً لي بخواطر يلقيها بطريقة عفوية فأتلقفها منه وأستبطنها في الإعداد.

أما كتابة الخطبة فمع أنّي أفكّر فيها وأُعِدّها طوال الأسبوع إلّا أني لم أكن أتهيأ لكتابتها إلا إذا تضايق الوقت ضحى الجمعة فأكتبها على حال من التوتر، ولذا فإني لا أكتبها كاملة وإنما أكتب طلائع من أولها ثم أضع الباقي عناصر فأجمع بين القراءة والارتجال.

وربما لم يكف الأسبوع للإعداد وتأتي الجمعة ولم يكتمل الموضوع بعد فلا أريد إحراقه، فألجأ إلى زميلي الشيخ إبراهيم الريس وهو خطيب لمسجد قريب مني فنتناوب الخطبة وإياه، أخطب في مسجده ويخطب في مسجدي.

ثم تطور أدائي للخطبة بالممارسة والاستماع للنقد والنصح من المحبين، فصار لي مسار في إعداد الخطبة وإلقائها، وصار بيني وبين جماعة المسجد المستمعين للخطبة تجاوب وتفاعل، وتشوق وتشويق، ومن طرائف ذلك أني ألقيت خطبة الجمعة وكنت يومها مريضاً مُجهَداً، ولكني بمجرد أن واجهت الناس انطلقت في الخطبة ونسيت ذلك، وانفعلت وتفاعلت، وكانت عن معركة مؤتة، فسرت مع الجيش إلى الشام، والتقى الجيشان وكان عدد الروم أضعاف عدد المسلمين، ودارت معركة طاحنة، واستشهد قائد المسلمين زيد بن حارثة، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب واقتحم عن فرسه وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها باردة وطيب شرابها
والروم روم قد دنا عذابها عليَّ إذ لاقيتها ضرابها

ثم قُتل جعفر.

وألقيت الأبيات بحماس وانفعال شديد استنزف قواي كلَّها، فأغمي عليَّ وأنا على المنبر، وحملت إلى المستشفى، ثم أفقت وكان مجرد إعياء وإجهاد لهذا العارض الصحي، فذهبت إلى بيت والدي في حي الشفا لأستريح هناك، فلما كان بعد المغرب جاءني جمع من جماعة المسجد للزيارة،

فلما استووا جلوسا بادرني العم جاسر الجاسر قائلا: يا عبد الوهاب نحن مشغول فِكرُنا عليك وعلى الجيش الذي ذهب إلى الشام ودخل المعركة وقتل قواده، والآن رأيناك بحمد الله بخير، بقي الجيش طمنا عنهم، خاطرنا مشغول معهم، إيش صار عليهم؟.

وكان يسأل بلهف وكأن المعركة ما زالت قائمة، وهم قلقون يترقبون نتيجتها.

فوعدته أن أكملها الأسبوع القادم، فقال: لا، علمني الآن، ما نصبر إلى الأسبوع القادم، خاطري مشغول معهم.

فأعطيته النتيجة مجملة بما أراح قلبه، ووعدته بالتفصيل في الخطبة القادمة، وكم كان سروري بهذا التفاعل والاهتمام، وأن الكلمة قد بلغت محلها وأثرت أثرها.

وبعد ذلك صار بعض من المحبين يقترح عليَّ طباعة هذه الخطب أو ما يناسب منها وإخراجها للناس مطبوعة منقحة، ولكني لم أتوجه لذلك، ولم أره مناسبًا؛ وذلك لأن الخطبة في ظني عمرها أسبوع وليست مُعمَّرة، ولذا شُرعت كل أسبوع لتجديد الموعظة والذكرى.

ولم يخطب أبو بكر بخطب النبي ﷺ، ولا خطب عمر بخطب أبي بكر، فلكل حال ظروفها وخطبها[1].

(١) من عبارات الشيخ عبد الرحمن الدوسري.

وأيضـًا فإن الخطبة مثل الثوب على لابسه[١]، فهي تناسب كاتبها وملقيها، وقد لا تناسب غيره إذا ألقاها، ولم أر في كتب الخطب الكثيرة المطبوعة ما يمكن أن يقال إنها تسد الفجوة وتحقق الغرض، ولكن يمكن أن يستعين بها الخطيب ولا يخطب بها، إلا ما رأيته في خطب الشيخ صالح بن حميد خطيب المسجد الحرام[٢]، فإنها مسبوكة سبكا أدبيا متقنا هي أشبه بمقالات الزيات في الرسالة، وتشعر أن الجهد المبذول في إعدادها يؤهلها للبقاء والتكرار.

وبعد أن صرت مستمعا للخطب ارتفعت عندي حاسة النقد، وما عادت طريقتي في كثير مما قلته تلاقي قناعتي اليوم، ومن أهم ما أتحراه اليوم في الخطبة أن تلاقي حاجة المستمعين وفائدتهم في حياتهم من تصحيح تصور أو تصحيح سلوك، لا أنْ تُطربهم وتلاقي أهواءهم.

وتلمُّسُ هذه الاحتياجات في كل مجتمع مهمة تحتاج إلى جهد ومعاناة ليست يسيرة.

وعلمت أن خطب الإثـارة العاطفية التي تطرب الحضور حين إلقائها سرعان ما تنطفئ، ولذا يلجأ من يسلك هذا المنهج إلى إعلاء النبرة في كل مرة ليحافظ على مستوى الإثارة، وغالبا ما يُستهلكُ ما عنده سريعـًا.

---

(١) من عبارات الشيخ صالح بن حميد.

(٢) وهي مطبوعة في عدة أجـزاء بعنوان «توجيهات وذكـرى من خطب المسجد الحرام».

بينما الذي ينبغي أن يفكر فيه الخطيب هو ما الذي سيبقى من خطبته في نفوس الناس، وما الذي سيستصحبونه منها؟.

وعندما سألني مذيع قناة تلفزيونية: لو عدت للخطابة هل ستكون كما كنت؟ قلت: لا، فتلك مرحلة مضت، فقد كانت الخطبة انفعالا يخرج من القلب فيصل إلى القلب متوهجًا مشتعلاً، وأما الآن فإنها تخرج من القلب ثم تمر على العقل فينطفئ بعض لهبها ويخفت بعض وهجها، ويبقى لبها وثمرتها، فخفَّ الانفعال وازداد التركيز.

وقد كنت أطيل بعض الخطب فتصل إلى خمسٍ وأربعين دقيقة، أما الآن فإني إذا خطبت الجمعة فلا أتجاوز خمس عشرة دقيقة، وأشعر أني قد قلت فيها ما ينبغي أن يقال في موضوعها.

وكثير مما ستجده في هذا الكتاب هي من الأخطاء التي كنتُ وقعتُ فيها، ثم اكتشفت الخطأ، وعرفتُ الصواب، ولِذا رأيت أن أُهدي إلى إخوتي نتاج تجربتي التي جرّبت، ومعرفتي التي عرفتُ، ومَن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، حتى يستفيدوا من الصواب، ولا يكرروا الخطأ، فإن الخطأ على المنبر مشهود مشهور، فباسم الله نبدأ، وعلى بركة الله نسير.

الفصل الأول

مسيرة الإعداد

مسيرة الإعداد

لقد رأيت من الخطباء مَنْ ظلَّ الناس يتحدثون عن خطبة الجمعة التي خطبها أسبوعـًا أو أسابيع، لأنها خطبة مؤثرة لاقت الاحتياج، وأحدثت التأثير.

وحدثني المستشار طارق البشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: زارنا الأستاذ حسن البنا في بلدتنا، فألقى فيها خطبة في قاعة سينما، بقي الناس شهرا كاملا يتحدثون عنها.

وكان الشيخ عبد الحميد كشك يخطب في «دير الملاك» وهو حيّ شعبي بالقاهرة أغلبيّته من المسيحيّين، فتطير خطبه في الأسبوع نفسِه إلى مدن الجزائر والمغرب غربـًا، والسعودية والخليج شرقـًا.

والسؤال هنا: ما الخطوات التي ينبغي أن يتّبعها خطيب الجمعة ليُنتِجَ خطبةً مؤثرة في نفوس الناس؟

هناك خطوات لا بُدّ أن يستوفيها الخطيب، وإذا أردت أن أختصر ما يجمع كلَّ خطوات إعداد الخطبة فإني أختصره في كلمة واحدة تعبّر عن الخطوة الأولى، وهي: «**الاهتمام بالخطبة والاهتمام لها**».

١ ـ الاهتمام بالخطبة:

وذلك أن تكون خطبة الجمعة موضوعُها، ومعلوماتُها، وطريقةُ سبكها، وطريقةُ إلقائها همّـًا عند هذا الخطيب وقلَقـًا محفزاً للإنجاز، بحيث يضعها في أولوياته، يفكر فيها، ويستشير لها، ويجمع مادتها، ويرتب أفكارها، ويحرّر مضامينها، وتظلّ تأخذ من تفكيره، ومن وقته، ومن جهده حتى ينجزها، بحيث تنطلق بعد ذلك مثل الطلقة، فيلقيها وهو يشعر أنه قد أدى كُلَّ ما يستطيع في إعدادها، وهذا هو الذي يميّز الخطباء البارعين المؤثرين عن غيرهم، ولذلك تجد شخصية ضخمة مثل عبد الملك بن مروان قيل له: عجَّل إليك الشيب. فقال: شيّبتني المنابر، إني أعرض عقلي على الناس كل جُمعة.

في حين أن بعض الخطباء تسأله ليلة الجمعة عن الموضوع فيخبرك أنه لم يحدّد الموضوع بعد، بل إني سمعت بعض الخطباء يقول: أنا في بعض الأحيان أفكر في الموضوع وأنا ذاهب إلى المسجد، ثم إذا صعدت المنبر وجلست بدا لي أنْ أغيّرَ الموضوع. فمثل هذا الخطيب ما الذي سيقدمه؟!، إنّ هذا استراح من حيثُ تعب الناس، وقتل هذه الشعيرة العظيمة، لأنه لا يمكن أن ينفعل في موضوعٍ إنما خطر على باله وهو في الطريق، وإن بلغت أهمية الموضوع ما بلغتْ.

فروح الإعداد وأول خطوة فيه هي: الاهتمام.

وذكر الشيخ راتب النابلسي أنّ مِن الخطباء مَن يبدأ بإعداد خطبة الجمعة من يوم السبت، فيجمع المادة الشرعية والشواهد المعينة من بعض العلوم الأخرى التي تعين على فهم آيات الله في خلقه فلا يكتمل سبكه لها إلّا ليلة الجمعة، فأين هذا ممن لا يفكر بالموضوع إلا يوم الجمعة؟!.

٢ ـ استشعر عظمة الموقف:

وذلك باستشعار أهمية المقام والموقف، فهذا منبر رسول الله ﷺ وموقفه، وهذه الخطبة شعيرة من شعائر الإسلام، أوجب الله السعي إليها، قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وذكر الله هنا هو خطبة الجمعة، قاله سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير[١].

ويكفي دلالةً على فضلها وأهميتها أن الملائكة الكرام الكاتبين يحضرون لاستماع الخطبة تعظيماً لذكر الله، قال ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»[٢].

فيتهيأ الخطيب لهذا المقام بما يليق من توقير ومهابة، ويجعل بين عينيه أن يؤدي ما يؤديه الرسول ﷺ إذا وقف في هذا المقام، وأن ملائكة الرحمن تستمع إليه وتحف به.

---

(١) «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٨/ ٢٢٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٠).

٣ ـ استشعر الدعوة في الخطبة:

استحضر أنك ذاهب لتبليغ رسالات الله، واحتسب أنك ممن قال فيهم الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وأنك بهذه الخطبة قد انتظمت في سلك الدعاة إلى الله، وترجو أن يكون لك نصيب من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وهذا يدفعك لاستحضار الغاية العظمى من الخطابة، وهي هداية الناس ودلالتهم على الخير[١].

٤ ـ أكثر من الدعاء:

من المهم أن يكثر الخطيب من الدعاء والتضرع إلى الله، ويسأله الإخلاص في القصد والصدق في القول، والصلاح في العمل، والاستعاذة بالله أن يشرك في عمله أحداً سواه، كما ورد في الحديث: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ**»[٢].

وكان مطرِّف بن عبد الله يقول: اللهم أستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالط قلبي منه ما قد علمت[٣].

ويستنزل معونة الله وهدايته وتسديده، ويتذكر وصاة النبي ﷺ لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي**»[٤].

---

(١) «صناعة خطيب ماهر» أحمد بن ناصر الطيار (٦٥).
(٢) يُنظر: «الأدب المفرد» للبخاري (٧١٦).
(٣) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٨٤).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٧٢٥).

٥ ـ اختيار الموضوع:

لا أزال أتذكر عندما بدأت مشوار الخطابة أنّ اختيار الموضوع كان يسبب لي قلقا شديدا، وسبب ذلك قلة المتابعة لأحوال المجتمع، وما يطرحه الدعاة وعلماء الأمة من خطابات إصلاحية عامة، حتى إذا اتضحت الرؤية واتسعت مساحة المتابعة والتّلقي تتابعت الموضوعات وتكاثرت القضايا.

إن المرء إذا تفكّرَ: كيف يؤدي رسالته من خلال خطبة الجمعة؟ فإن الموضوعات ستتزاحم أمامه، لأنه صاحب مشروع هداية، وهو في كل جمعة يريد أن يبني بناء في نفوس الذين يستمعون إليه، فيدلَّهم على هدى، أو يحذرهم من خطأ، فخطيب الجمعة رجل خبير بالحياة وعللها، خبير بالوحي وهداياته، فيأخذ من هدايات الوحي ما يداوي به علل الناس، فيصلح بالهم، ويتألف قلوبهم، ويكون معهم المداوي الذي يصحبهم في طريق الحياة بهذه الجرعات الإيمانية، والتوجيهات التربوية التي تهديهم للتي هي أقوم.

ثم إنّ خطيب الجمعة إذا قلَّب البصرَ في مساحة الواقع أمامه رأى حشوداً من الإغواء متوجهة للناس، وجيوشـًا من الشياطين تريد أن تجتالهم، فيستشعر المسؤولية ويأخذ بحُجَزهم[1].

(١) حُجَزهم: أي: بمحازمهم، موضع الحزام الذي يربطه الإنسان على خصره.

كما قال ﷺ: «**فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا**»[(١)]. وخطيب الجمعة يأخذ بحجز الناس أن تجتالهم شياطين الجن والإنس، فهو يستشعر مسؤوليته عن تأسيس معاني الإيمان في النفوس، وبناء القيم وتهذيب الأخلاق، ومواجهة مشاريع الإلهاء والإغواء التي تملأ منصّات الإعلام، وتثير الدخان في فضاء الرأي العام، فأمام الخطيب مسؤولية واسعة إذا نظر بعين البصيرة لواقع الناس واحتياجاتهم، ولذلك سيجد الموضوعات متوافرة متكاثرة، فيختار منها ما يكون مناسبًا للمستمعين، وللظرف الزماني والمكاني، كما سيأتي تفصيله.

٦ ـ تحديد هدف الخطبة:

ممّا يُحذَّر الخطيبُ منه: أن يصعد إلى المنبر خالي الوفاض، ولم يحدد الفكرة، ولم يرسم مسار الحديث، ولم يجمع الشواهد، ولم يحضر النصوص، وإنما صعد ليقول ما يجري على لسانه وما يسنح على خاطره، فتصير الخطبة رسالة سلبية للمستمعين، تُشعرهم بعدم الاحترام لعقولهم، وعدم الاحترام لوقتهم، وعدم الاحترام للشعيرة التي يؤديها هذا الخطيب.

فلا بُدَّ أن يكون الهدف الذي يصمد إليه الخطيب في خطبته واضحًا إلى درجة التّألّق، وما لم يكن واضحًا له فلن يكون واضحًا لمستمعيه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٤).

فيسأل نفسه: ماذا يهدف من خطبته تلك؟، هل يريد الدلالة على خصلة خير، وأن يأمر بمعروف؟، أم أنه يرى عند الناس مفهوماً خاطئاً يريد أن يصححه؟ أمْ أنَّ حدثاً وقع يحتاج من الناس إلى تفاعل وإغاثة؟، أمّا إذا كان الهدف أصلا غير موجود فماذا سيقول غير تعبئة الفراغ؟!.

يقول كارنيجي: لا تتكلم حتى تتأكد أن لديك ما تقوله، واعرف عمَّ ستتحدث، ثم قلْهُ واجْلِس.

أمّا ذهاب الخطيب دون أن يعرف عما سيتحدث فهو مثل الذي يذهب إلى معركة بلا عُـدّة، والحقُّ أن عـدمَ الاهتمامِ والاحتشادِ وعدم تحديد الهدف، وضعف الإعداد أو عدمه هو استخفافٌ بعقول الناس، فالناس يأتون إلى الصلاة وهم متعبدون لله عَزَّوَجَلَّ بالإنصات إليك، فطوالَ كلامك لا يُسمح لأحد منهم أن يكلم الذي بجانبه، ولا يُسمَح لأحدهم أن يعبث بما بين يديه، ولا أن يفتح الجوال، أو يرد على الاتصال، كل هذا ممنوع منه، ثم إذا بالخطيب يقدِّم لهم كلاما هو ضجيج لا مضمون له!، فهذا استخفاف بالعبادة وشعائرها، واستخفاف بالحاضرين، بعقولهم ووقتهم.

إنّ من أهم ما ييسر على الخطيب اختيار الموضوع أن يسبق ذلك تحديد الهدف من خطبة الجمعة:

- ما الذي أهدف إليه عندما أخطب هذا الأسبوع ؟
- وما الذي أهدف إليه من خطب سنة كاملة؟

- هل أريد أن أصحح خطأ سلوكيا؟
- هل أريد أن أحث على عمل خير؟
- هل أرى غفلة عن عمل صالح فأريد تذكير الناس به؟
- هل أريد أن أصحح مفهومـًا خاطئـًا عند الناس؟
- هل أريد أن أسكب السكينة والطمأنينة على نفوس متوترة وتعيش أزمة قلق أو انفعال؟

فإذا حدد أهدافه في خطبة الجمعة سهُلَ عليه اختيار الموضوع.

ويعجبني في بعض خطباء الجمعة الجادين أنه يعِدّ خطّة للموضوعات التي سيخطب عنها طول السنة، فعنده مشروع سنوي، فهو يفكر في المادة التي سيكتسبها منه المستمع خلال السنة القادمة، فتجده ينظم الموضوعات، فينوّعُ فيها بين تصحيح مفاهيم، وتقويم سلوك، ودفع للعمل الصالح، وتقوية للإيمان، وتزكية للنفوس، وتهذيب للأخلاق، وهذا يُبعد الرتابة، ويُبعد الملل، ويقي الخطيب التّكرار، ويجعل الرؤية واضحة، والخطب متكاملة، فيصير المستمِع المواظِب كأنه تخرج من دبلوم دراسي أو دورة تدريبية.

فإذا حصل ظرف طارئ يحتاج خروجـًا عن الخطة تجاوز هذا الترتيب وخطب في ما يمس واقع الناس، وهذه الطريقة في خطب الجمعة سبب لخُطَبٍ بنّاءة، تبني شيئا داخل النفوس، يأتي الناس إليها ثم يخرجون بقلب زكي، ونفس يقظة، قد بُثَّت فيها الحياة.

٧ ـ إعمال الذهن:

وهذا من أهم الأمور، أن أفكر: ماذا سأقول؟ أن أرتّب الأفكار وأختار العبارات وأفكر في صياغتها. وهذا من أهم ما يحتاج إليه الخطيب، لأنه هو الذي يحشد المعاني في نفسك، فإذا فكرت في الموضوع ووجدت أنّ ذهنك لم يُسعفك فتشاورْ مع من يتناغم تفكيره مع تفكيرك.

وهذا الذي كان يفيدني كثيرا عندما كنت أخطب، فقد كنت أتحدث عن الموضوع مع إخوة يتفق تفكيرهم مع تفكيري واهتمامهم مع اهتمامي، فأُخبرهم بالموضوع الذي سأخطب عنه قبل أيام، وبما أنوي ذكره، فيضيف كلٌّ منهم إلى أفكاري، ويساعدني على وضوح الرؤية، فكنت أستفيد من أفكار الآخرين ما يثري فكرتي.

ولِذا فمِن إعمال الذهن أن تفكر وأن تستعين بتفكير غيرك.

إن التحضير يعني التفكير والاستنتاج والتذكر واختيار ما يعجبك وصقله وجمعه في وحدة فنية من صنعك الخاص، وهذا يجعل الخطيب دائم التفكير، متحفزّاً لالتقاط أي فكرة يستثمرها، أو فائدة يضيفها لمادةٍ يجمعها، ويكون لديه أرشيف مفهرس يغذيه بما يجمعه، ويرجع إليه عند إعداد خطبته.

سُئل دويت ل. مودي عن خطبه التي جعلته مشهوراً عبر التاريخ كيف يحضّرها؟ فقال مجيباً عن هذا السؤال: ليس لدي أي سر، حين أختار موضوعاً،

أكتب اسمه على مغلف كبير، لدي الكثير من تلك المغلفات فإذا وجدت أثناء القراءة شيئًا جيداً حول الموضوع الذي سأتحدث عنه، أنقله إلى المغلف الصحيح وأضعه جانبًا، ودائمًا أحمل معي دفتر ملاحظات، فإن استمعت إلى عبارات أثناء أي احتفال، تلقي ضوءاً على الموضوع، أسجلها ثم أنقلها إلى المغلف، وربما تركته جانبًا لمدة سنة أو أكثر. وحين أريد أن ألقي بخطبة، أتناول ما أكون قد جمعته، فأجد مادة كافية مما أجده هناك إضافة إلى اجتهادي الخاص.

ثابر على كتابة جميع الأفكار التي ترد إلى تفكيرك، والفوائد التي تمر بها في أثناء قراءتك، فهي أهم عملية فكرية تستعد بها لإعداد مادّتك، إنها الوسيلة التي تدفع العقل للنمو لكي يصبح قوة حقيقية منتجة[١].

٨ ـ تكلَّم فيما تحيط به علما:

فربما وجد بعض الخطباء شهوةَ أن يتكلم في أشياء معاصرة، وهذا لا حرج فيه، فقد يتكلم عن العلمانية، أو الليبرالية، أو النسوية، أو الجندر، أو غيرها من الموضوعات التي أصبحت متداولة في الإعلام في عصرنا، ففي مثل هذه الحال ينبغي قبل الحديث عنها أن يحدّث معلوماته عنها، فلا تكون معلوماته من منشورات شبكات التواصل الاجتماعي (سوشيال ميديا) الموجزة، أو المرئيات القصيرة، أو من الانطباعات العامة، فيتكلم بكلامٍ إذا سمعه أهل الاختصاص عجبوا منه أو ضحكوا عليه.

---

(١) «فن الخطابة» لديل كارنيجي.

ولا أزال أذكر أحد الإخوة المتخصّصين إذ قال لي: حضرت محاضرة عن الليبرالية اكتشفت فيها أن هذا المحاضِر لا يعرف الليبرالية من أولها إلى آخرها، وإنما أسمعَنا هجاءً مقذِعاً للّيبرالية التي تخيّلها.

فينبغي أن يجدّد الخطيب معلوماته عن الموضوع ويوثّقها بحيث يحترمه من يستمع إليه، ويصير الكلام جامعاً للمصداقية والموثوقية.

وحين تتناول هذا الموضوع أو ذاك.. فتذكرْ أن في مستمعيك من يفوقك - ولو في موضوع خاص - فجاهد نفسك في الدقة العلمية، وإصابة المرمى، وإن أعوزك الأمر فلُذْ بتعميم العبارة، وتوسيع الإشارة، وحاذر من حكاية الأوهام، فإنك تخسر بذلك كل يومٍ فئةً تدري أن ما تحكيه ليس بصواب، فتنجفل إلى الباب ثم لا تعود!.

٩ ـ حدث الناس بما يستطيعون:

إن خطيب الجمعة الناصح يفكر كثيراً قبل أن يخطب: ما الذي سيترتب على كلامه في حياة من يستمع إليه؟، ما الذي سيتغير من سلوكه؟، ما العمل الصالح الذي سيعمله؟، ما التصور الخاطئ الذي سيصححه؟.

ولكن كثيراً ما يتوجه الخطيب إلى ملاقاة رغبات الناس وليس تلقي مراد الشرع المطهَّر، وكثيراً ما يجتذبه خطاب الإثارة الإعلامية على خطاب الإصلاح والهداية، فيختار الخطاب الذي يلامس ما في نفوس الناس من حبٍّ للتّنفيس، وميل إلى النقد، وتعبير عن السخط، ويجد أن هذا الخطاب يحدث تفاعلاً واستثارة، من غير أن يفكر بالنتيجة العملية لهذا الخطاب في حياة الناس وسلوكهم وتصوراتهم.

إن أخطر ما ينزلق إليه الخطيب هو التجاوب مع ما يطلبه المستمعون وليس ما يحتاجه المستمعون.

إن كثيراً من خطاب النقد الصائب يجب أن يوجه إلى المسؤولين، وليس إلى هؤلاء المستمعين، ومكانه قاعة البرلمان، أو صفحات الصحف، ونحوها من وسائل التعبير والمطالبة بالحقوق، وليس منابر الجمعة التي يوجه الخطاب فيها إلى المستمع في ما يعنيه ويقع تحت قدرته ومسؤوليته.

إن خطاب النقد والإثارة يُستهلك سريعًا، ولذا يلجأ من سلك هذا الطريق إلى رفع وتيرة النقد في كل مرة للحفاظ على درجة الحرارة.

حدّثني ابن لي أنه صلى الجمعة في مسجد للجالية العربية في دولة أوروبّية، وفوجئ بأن الخطبة كانت عن الحكم بغير ما أنزل الله، وتساءل وتساءلت: ما هو الذي بيد هؤلاء المغتربين من هذا الأمر؟ وأين هذا الخطيب من المشاكل التي تحيط بهم في غربتهم؟، وأين خطاب التثبيت والتوجيه لمن يعيش حالة الاغتراب هذه؟.

وقد يظنّ البعض أنّ الخوض في أمور السياسة هو الذي يُكسِب الخطيب تألّقه ويحشد الناس حوله، فتتحوّل خطبة الجمعة إلى منصة للشأن السياسي، وتوزيع تهم الخيانة والعمالة على هذه الدولة وتلك القيادة، ويتحول الخطيب إلى صحفي، وتتحول الخطبة إلى مشاتمة، وتبقى مساحة الإصلاح والهداية شاغرة، فقد شُغِلَ الخطيب عنها بالحديث إلى الناس في ما لا يستطيعون وترك الحديث إليهم في ما يستطيعون،

وقد قال خطيب الأنبياء شعيب لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]. فمساحة الإصلاح هي مساحة الاستطاعة، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ومن أعظم كيد الشيطان أن يغري الإنسان ويلهيه بالاهتمام بما لا يستطيع، ويزهده في العمل بما يستطيع، فتكون النتيجة أن ما لا يستطيعه لن يعمله، وما يستطيعه قد زهد فيه.

وإن من الانحراف الشديد بخطبة الجمعة عن مهمتها ورسالتها إلهاء الناس بالشأن الخارج عن مساحة استطاعتهم وتأثيرهم، وإغفال ما هو في وسعهم وطاقتهم، وما هم مسؤولون عنه أمام الله عَزَّوَجَلَّ من استقامة سلوكهم، وأداء واجباتهم، وحفظ بيوتهم، وإحسان تعاملهم مع غيرهم، ونحو ذلك من مساحة الإصلاح المستطاع.

وليست الإثارة والإغراب هي الجاذب الوحيد للناس، واللافت لاهتمامهم، فإن الموضوع الحي، والتناول السديد، ورشاقة الأسلوب، وجودة الإلقاء، وحسن الانتقال.. هي ضمانات الإبداع، ومحققات الالتماع، وجالبات الاستماع..

وكم من واعظٍ بضاعته التبشير والتخويف، تحتشد حوله ألوف بعد ألوف!

وكم من فقيهٍ متحدث في الحلال والحرام.. والناس حوله فئام إثر فئام!

وكم من مفسّر.. ومفكّر.. ومنظّر.. وما شأن برامج الإذاعة والتلفزة عنا ببعيد![١].

١٠ ـ مناسبة الموضوع للمخاطبين:

ففي كل حي أو مسجد تجد أن الحضور يصبغهم طابع عام، فربّما يكون الحي من الأحياء الفقيرة، فلجماعته اهتماماتهم ومسؤولياتهم، والخطاب الذي يناسبهم، فلا يناسب أن يُطرح ما يليق بالأغنياء في حي الفقراء، وإنما يطرح لهم ما يناسب حالهم، ممّا يشعرهم بالرضا والقناعة، ويحبب إليهم المواساة، والرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ، ونحو ذلك، ويدلّهم على أعمال الخير والفضل التي تناسب حالهم، كما في الحديث أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسولَ اللهِ، ذهبَ أهلُ الدثورِ بالدرجاتِ والنعيمِ المقيمِ. قَالَ: «**كَيْفَ ذَاكَ؟**» قالوا: صلوا كما صلينا، وجاهدوا كما جاهدنا، وأنفقوا منْ فضولِ أموالهمْ، وليستْ لنا أموالٌ. قالَ: «**أَفَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ تُدْرِكُونَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُمْ بِهِ إِلَّا مَنْ جَاءَ بِمِثْلِهِ؟ تُسَبِّحُونَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْراً، وَتَحْمَدُونَ عَشْراً، وَتُكَبِّرُونَ عَشْراً**»[٢].

وكنت صلّيت بجامع في منطقة صناعية، فكنت أتمنى أني أخطب الجمعة في هذا المسجد، لأن جمهور المسجد هم من العمالة المهاجرة التي تعمل في المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، وهم صناع

(١) «الخطاب الدعوي» (٧٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٣٢٩).

في ورش تصليح السيارات وغيرها، فتخيلت لو أني أخطب عندهم ماذا سأقول لهم؟

إنّ أول شيء سأقوله لهم: هل تعلمون أن الله قرنكم بالمجاهدين في سبيله؟ فقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. هل تعلمون أن عملكم هو جهاد في سبيل الله؟ لأنكم اغتربتم عن بلادكم، تكدحون من الصباح إلى المساء حتى تطعموا أفواها جائعة، وتكسوا أبدانا عارية، وتحققوا لكم ولأسركم ولمن وراءكم العفاف، وتسعون على آبائكم الكبار وأطفالكم الصغار، فهل شعرتم بعظيم الفضل والأجر وعظيم العمل الذي تقومون به؟!.

ونحو هذا من بث ما يُشعرهم بقيمة عملهم، ثم بعد ذلك يمكن أن يأتي الكلام عن المحافظة على نقاء العمل، وأن تستشعر أنّ عملك طاعةٌ فلا يخالطها غشٌّ ولا يمين كاذبة، ولا احتيال، لأنك وأنت في المصنع الذي تعمل فيه كما أنت في المسجد الذي تتعبد فيه.

فهذا الخطاب يناسب هذه الفئة.

أمّا حين يكون الخطاب في حي أثرياء فإن الكلام سيكون عن أهمية الكسب الحلال، وتجنّب المعاملات المحرّمة، وعن مسؤوليتهم في المال الذي خولهم الله إياه، ويسر لهم جمعه، ولكنَّه مال الله ملّكهم إيّاه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وأنّ هذا مال عابر، إن لم يغادرك فستغادره، فقدِّم منه لآخرتك مثل ما جمعت منه لدنياك.

فمثل هذا التوجيه يناسب حيّاً فيه ثراء وسعة.

١١ ـ مراعاة حال المسجد:

مراعاة نوع المسجد، فإن المساجد تختلف؛ فمساجد الأحياء السكنية تختلف عن الجوامع المقامة في المطارات أو المستشفيات أو الأسواق العامة، والتي يرِد الناس إليها في العادة مستعجلين لأداء الفريضة، ولا يناسبهم الإطالة أو التفصيل في الموضوعات، مع الاختلاف الكبير بين المصلين في مستوياتهم العلمية والفكرية ولغاتهم أيضاً.

ويقابل هذا الجوامع المقامة في الإسكانات المخصصة لشرائح محددة مثل المدن العسكرية أو إسكانات أعضاء هيئة التدريس في الجامعات أو إسكانات الأطباء ونحوهم، فهذه تحمّل الخطيب مسؤولية إضافية في اختيار الموضوعات المناسبة لهذه الشرائح، واختيار الطريقة المناسبة لعرض هذه الموضوعات عليهم.

ومما يجب مراعاته في نوع المسجد أن المساجد التي في بلاد الأقليات المسلمة لها خصوصيات مختلفة عن بلاد العالم الإسلامي في الاهتمام باللغة والترجمة والموضوعات المطروحة، وبحساسية كل ذلك، ولا سيما في المساجد والمراكز الإسلامية الكبرى، فلا يصح أن يقف الخطيب فيها كأنه يقف في جامع في القاهرة أو الرياض أو الرباط، بل ينبغي عليه مراعاة موضوعه بعناية.

كما أن من المهم مراعاة ضيق المسجد، أو توفر وسائل الراحة فيه من التكييف أو التدفئة أو توفر مكبرات الصوت وصلاحياتها، فمن غير المناسب إطلاقًا إطالة الخطب والتوسع فيها والناس واقفون في الخارج في حرارة الشمس أو مع انقطاع الصوت... إلخ.

١٢ ـ مراعاة الظرف الحالي:

فليس من الرشد أن يكون في البلد حادث عظيم مثل الزلزال المدمِّر، أو الفيضان المُغرق، أو الحريق الواسع، ثم يتكلم الخطيب حينها عن عذاب القبر أو إماطة الأذى عن الطريق، وكأن البلد ليس فيها حدث فاجع، بل المفروض أن يكون له موقف يتكلم فيه عن مصاب الناس، فيداوي جراحاتهم، ويجبر مصابهم، ويدخل السَّلوى إلى قلوبهم، ويتكلم عن الابتلاء والصبر على المُصاب، ونحو ذلك، ويكون حاضراً في أزمات الناس، فيدعو إلى الإغاثة، ويحثّ على النفقة والمساعدة.

وكذلك الأحداث الاجتماعية كبداية العام الدراسي، أو المناسبات الدينية كقدوم شهر رمضان ونحو ذلك، فهذا مما ينبغي أن يراعيه خطيب الجمعة عند اختيار الموضوع.

مع التذكير بأهمية الحكمة والتوازن في ذلك، فلا يبالغ في تتبع الأحداث، حتى تتحول الخطبة إلى نشرة أخبار، وإنما يذكر الحدث الذي له صفة العموم، ويحتاج الناس فيه إلى نصح وتوجيه، والبصيرة في هذا الاختيار من الحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

١٣ ـ تنويع مواضيع الخطب:

الحضور لدى الخطيب جموع متنوعة في اهتماماتها ومشاكلها ومعاناتها، ويحاول الخطيب في مجموع خطبه أن يخاطب مجموعهم وليس فئةً منهم، ولذا فلا بد من تنويعِ الخطب في مواضيعها، وعدمِ الاسترسال في وتيرة واحدة من المواضيع، كالتركيز على الرقائق أو الأخلاق أو نحوها، وكأنه يركز على قضية خاصة ويخاطب فئةً معينة.

ومن ذلك اتخاذ مواضيع متسلسلة، كأن يتكلم عن الزواج، بدءاً من الخطبة، فغلاء المهور، فمنكرات الأفراح، فالعلاقة الزوجية، فالمشكلات الزوجية، وهكذا... مما يصيب المستمعين بالملل، ويطفئ التشوق.

وربما كان اختيار الخطيب للمواضيع المسلسلة مثل مراحل الآخرة، وقصص الأنبياء، ونحو ذلك، حتى يتجاوز الحَيرة في اختيار الموضوع، وهذا من التقصير في الاجتهاد والإعداد.

١٤ ـ اختيار فكرة واحدة:

فيختار الخطيب من الموضوع الذي سيتكلم عنه فكرة واحدة، ويحاول الإحاطة بها، بدل أن يجمع أفكاراً كثيرة، فتزدحم عليه ثم يضيع بينها.

فأحصر موضوعي في فكرة محددة أستطيع أن أُشبِعَها، وأركِّزَ عليها، وأستطيع إيصالها للمستمعين، أمّا إذا اجتمعت عدّة موضوعاتٍ متفرّقة فإنه وإنْ كان بينها رابط في ذهنك لكنْ قد لا يقدر المستمع على إدراك ذلك الرابط، فيشعر أنه ضاع معك بين عدة موضوعات.

ويعجبني تعبير ديل كارنيجي إذ قال: لا تقفز وأنت تخطب أو تتحدث بين الموضوعات مثل الماعز الجبلي، يقفز من صخرة إلى صخرة.

وعدم التركيز على موضوع واحد هو الذي يفضح الخطيب، ويبيّن أنه لم يستعدّ قبل الخطبة، فإذا وجدت الخطيب يتكلم في أكثر من موضوع من غير أن يُحسن الربط بينها فاعلمْ أنه ما استعدّ قطّ، وإنما يحاول أن يملأ الوقت بأي فكرة تمرّ بذهنه وهو يتكلم، وفي هذا جناية على المستمعين، وجناية على المنبر، وعلى الشعيرة.

الفصل الثاني
مثلث التكوين

مثلث التكوين

إن أدوات الاقتدار الخطابي لخطيب الجمعة يمكن أن تُختصر في ما يمكن أن نسميه مثلث التكوين، وهذا المثلث له ثلاثة أضلاع، تُكوِّن بمجموعها أسس الإعداد والتأهيل لخطيب ناجح مؤثر.

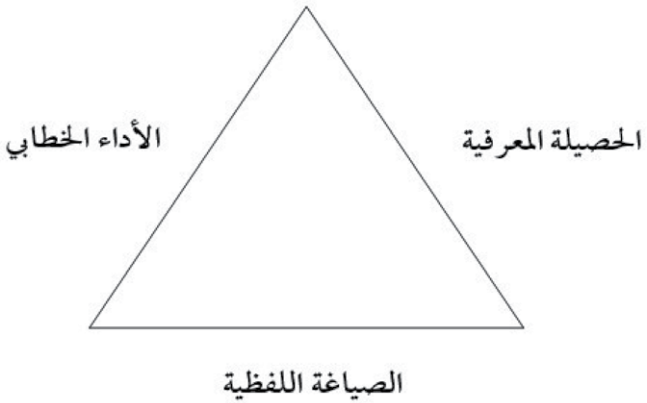

وكل واحد من هذه الأضلاع الثلاثة له أهميته ودوره في إعداد الخطبة وأداء الخطيب، وهي أضلاع تتكامل مع بعضها، وتتناغم في أداء الخطيب المؤثر، والحديث عن كلٍّ منها يحتاج إلى بعض التوضيح والتفصيل، وهو ما سنتحدث عنه باختصار.

أولاً: الحصيلة المعرفية

إنّ أول ما يحتاج إليه خطيب الجمعة هو: المادة العلمية، لأنه إذا لم يكن عند الخطيب مضامين ومعارف مدعمة بالبراهين يبلّغها في الخطابة فماذا سيقول؟ وبِمَ سيتكلم؟ وإذا كانت حصيلته المعرفية ضعيفة ومعلوماته هزيلة، فقدْ فَقَدَ أهم أركان الخطبة؛ وهو قوة مضمونها وأهميته.

ولذلك لا بُدَّ للخطيب أنْ يُكَوِّن نفسه علميا، بحيث يكون عنده ثروة من المعلومات التي يريد أن يوصلها للناس، وينبغي أن يعلم الخطيب أنه ليس هناك مستوى معيّنٌ يتوقف عنده في التعلّم والتطوير، بل لا بُدَّ أن يحدّث معلوماته طوال عمره ويطوّرها، ويجدّدَ التأمل فيها، بحيث إنّ الذي يصلّي معه هذه السنة يسمع كلاماً غير الذي سمعه السنة الماضية، ويتأكّد ذلك في عصرنا هذا، فالعالَم سريع التطور، والمعلومات تتجدد، والطرائق تتطور، وقد قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، فلم يذكر التوقف لأن التوقف في حقيقته تأخّر.

وللجاحظ كلمة بديعة، فقد قال: الجهل لا يحتاج إلى أكثر من ترك التعلم[1].

ويقول الأديب فولتير: الروح نارٌ إذا أنت لم تُطعمها خَبَتْ، ثم انطفأت.

وكذلك روح الخطيب ما لمْ يُغذِّها بتجديد معلوماته، والتعمّق فيها، وكثرة القراءة، وتوسيع الثروة المعرفية فإنَّ معلوماتِه ستتقادم، ويقع في فخّ تكرار المعلومات نفسها، بالطريقة نفسها والأسلوب نفسه.

ومن الأمثلة الحسنة هنا خطب الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو من أشهر خطباء العصر، وكثيرٌ من كتبه التي طُبعت وانتشرت واستفاد الناس منها كانت في الأصل خطبًا، والخطب التي تكون قابلة أن تتحول إلى كتاب ذي مضمون خاصّ لا شك أن فيها مضامين علمية وفكريّة، ولو كانت مجرد ضجيج خطابي لَـمَا استطاع أن يحولها إلى كتب، وذلك يعني أنه كان يستعد لهذه الخطب استعداداً علميا، ولذلك كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كنت آكل الطعام بيميني، والكتاب في يساري. وانظر في كتاب «صفحات من صبر العلماء» لشيخنا عبد الفتاح أبو غدّة لترى صوراً شائقة لنهم العلماء في تطلُّب العلم إلى آخر أيام العمر وآخر أنفاس الحياة.

وأكثر ما يجني على الخطيب أن يظنّ أنه قد بلغ مستوى لا يحتاج معه إلى الاستزادة من التعلم، فيتوقف عن القراءة، فيجتر معلوماتِه، ويكرر مضامينه وعباراته، فيتقادم ولا يتقدَّم.

(١) «البيان والتبيُّن» للجاحظ (١/ ٨٩).

وقد لاحظنا في مسيرتنا العُمرية أناساً كانوا متألقين ومبهرين، ثم مضى بنا وبهم العمر والتقيناهم فإذا الكلام الذي كنّا سمعناه منهم هو الكلام الذي يقولونه الآن، وإذا العبارات التي كانوا يرددونها هي العبارات ذاتُها التي يرددونها الآن، فعرفنا أنهم توقفوا عن تحديث معلوماتهم، ولذلك صاروا يكررون أنفسهم، فتجاوزهم الناس، أما الذين بقوا في المقدمة فهم ذوو الشخصيات المتجددة دوماً، النّامية دوماً.

والمادة المعرفية هي التي سيذكرها الناس بعد الخطبة، وربّما يجد الإنسان نفسه مستمعاً إلى خطيبٍ ومستمتعاً بحديثه، لكنه بعد مغادرته لا يتذكر معنًى، ولا يُمسك بقضية، لأنّ براعة ذلك الخطيب كانت في إلقائه وليس في مضمونه.

وخطبة الجمعة ليست زخرفةً لفظية، ولا براعةً إلقائية، ولكنها قبل ذلك مضمون ورسالة يوصلها اللفظ الجميل، والإلقاء البارع.

وإذا كان الركن الأول من أركان هذا المثلث هو الحصيلة المعرفية فهنا يأتي السؤال:

ما الحصيلة المعرفية التي يحتاج إليها الخطيب؟

والجواب أنّ من أهمّ وسائل تكوين الحصيلة العلمية وإثرائها ما يلي:

١ ـ استظهار القرآن مع تفسير ميسر:

كمختصر تفسير ابن كثير لأحمد شاكر، وتفسير القاسمي، وتفسير السعدي، وتفسير المراغي، ليكون الخطيب قادراً على الاستشهاد بالآيات، وربطِ الناس بمعاني القرآن.

٢ ـ استعراض السنة استعراضاً أفقياً من الكتب المجرَّدة:

كرياض الصالحين، ومختصر صحيح البخاري للقرطبي، أو للشثري، والجمع بين الصحيحين للإشبيلي، ومعالم السنة لصالح الشامي، وغيرها.

ولا يلزم أن تكون قراءة تعمق وتحليل، بأن يقرأ الخطيب لكل حديث شروحه، وينظرَ في خلاف العلماء في أحكامه، وخلافهم في غريبه، فالمقصود هنا المعاني الواضحة الظاهرة في دلالة النصوص التي يحتاج إليها المسلم، مثل الأحاديث الواردة في السلوك: مِن مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، والخوف من الله، ورجاء الله، وعظمة الله عَزَّوَجَلَّ، والأحاديث في وصف اليوم الآخر، والأحاديث في مكارم الأخلاق، والأحاديث في التعامل بين الناس، وهكذا ... مما يحتاجه الناس لتقوية إيمانهم، وأخلاق حياتهم.

ولا يَلزمُ الخطيب حفظُ أحاديث المعاملات، وأحاديث الشفاعات والحدود، لأن تلك بضاعة الفقيه، وإنما يحتاج الخطيب من الفقه ما يحتاج إليه الناس في العبادات، ولا يحتاج من الفقه إلى ما يحتاج إليه القاضي أو المفتي.

وبذلك يصير عنده التصور لما قاله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وما عاشه، بحيث تتكثف هذه الصورة حتى كأنما يعيش معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

٣ ـ معرفة السيرة والشمائل:

وكتب السيرة النبوية كثيرة ومتشابهة، ولذلك أرشح منها للخطيب: «السيرة النبوية» لابن كثير، وهو جزء من كتابه البداية والنهاية، ومن كتب المعاصرين كتاب «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي، فهذا الكتاب مختصر، لكن مزيّته أن فيه شحنة عاطفية وجدانية، لأن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبه بروحه وبذوقه، وسمعت أن الشيخ عندما كان يكتبه كان يختلط دمعه بحبره، وهذا التأثر يجده من يقرأ الكتاب، و«السيرة النبوية» للصوياني، وله أسلوب جاذب.

وكتب السيرة تُعنى بالوقائع والأحداث، كسيرة ابن هشام ومختصراتها وما حذا حذوها من بعدها، لكن الأهمّ للخطيب كتب شمائل النبي ﷺ التي فيها تركيز على مواضع القدوة في حياته ﷺ، ومن أفضلها: «زاد المعاد» لابن القيم، وله اختصارات تقرّبه، منها مختصر الشيخ صالح الشامي، ومختصر د. أحمد المزيد، ومن الكتب الحديثة: كتاب «نُضْرة النعيم» للشيخ صالح بن حميد، و«شخصية الرسول ﷺ» للشيخ محمد رواس قلعجي، وكتاب «مع المصطفى ﷺ» لسلمان العودة، وأحوال المصطفى ﷺ للمنجّد، ولمُحبّكم كتيّب «اليوم النبوي»، وكتاب «الحياة النبوية»، و«قصص نبويّة»، و«السيرة اليسرة» وكلها تتكلم عن حياة النبي ﷺ وشمائله، فذلك موضع الأسوة والاقتداء.

وقد جَمعْتُ في كتاب الحياة النبوية نحو ثمانين عنوانـًا، كل عنوان منها هو نمط من حياة النبي ﷺ، مثل: الرسول في الطريق، الرسول في السفر، الرسول والـذوق، الرسول والجمال، الرسول والحب، الرسول زوجا، الرسول أبـًا، الرسول صديقا، وهكذا... وهذه هي التي ينبغي أن تنقل للناس، ليأخذوا من حياته ﷺ لحياتهم، وليعيشوا في هذه الحياة وكأنهم من أصحاب النبي ﷺ.

٤ ـ التأصيل في مسائل الإيمان:

وذلك بالقراءة في الكتب الميسّرة في العقيدة، مثل كتب الشيخ محمد الأشقر في أركان الإيمان الستة، وكتاب الشيخ أبي الحسن الندوي «العقيدة والسلوك»، ومن المهم تقديم العقيدة في وعاء تعزيز اليقين وترسيخ الإيمان، وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة حقه على عباده، وإفراده عَزَّوَجَلَّ بالعبادة والوحدانية.

مع البعد عن الخلافات العقدية ومعتركات الطوائف والفرق ومقالاتهم، فهذه مكانها دوائر العلم الخاصة، وليس خطاب العامة.

٥ ـ كتب التزكية والأخلاق:

ومنها كتاب «العبودية» لابن تيمية، و«زاد المهاجر إلى ربه» لابن القيم، و«مختصر مدارج السالكين» للعزّي، و«مختصر إحياء علوم الدين» للشامي، و«خلق المسلم» للغزالي، ونحوها.

٦ ـ الإلمام بالتاريخ الإسلامي:

فيحتاج الخطيب أن يكون عنده تصورٌ لتاريخ الأمة ولو كان تصوّراً مجملاً، فيقرأ كتاباً من كتب التاريخ، لأنه سيجد فيه وقائع يستشهد بها، مثل «مختصر تاريخ ابن كثير» للدكتور السُّلَمي، و«مختصر سير أعلام النبلاء» لمحمد موسى الشريف، و«تاريخ الحضارة الإسلامية» للدكتور أبي زيد شلبي، ونحوها.

٧ ـ التزود من كتب الدعوة والفكر المعاصرة:

التزود من كتب الدعاة المعاصرين، مثل مقالات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ورسائل الإصلاح للشيخ الخضر حسين، وكتب الشيخ أبي الحسن الندوي، والشيخ يوسف القرضاوي، والشيخ عمر عبيد حسنة، وغيرهم.

٨ ـ متابعة الواقع:

فينبغي أن يكون عنده متابعة لوقائع الحال بوسائل الإعلام ووسائل التواصل، فإذا تكلم مع الناس لا يتكلم وكأنه جاء من القرون الغابرة والماضي البعيد، بل يتكلم مع الناس وهو قريب مما يعايشونه ويعانونه، ولذلك يكون كلامه متصلا بواقع الناس، مُتابعاً لمشكلاتهم وقضاياهم، وهذا يكون بالمتابعة الرشيدة لوقائع الحياة.

وأيُّ معنى لخطيب يتحدث في الزنا والفاحشة، ولا يعرّج على الإيدز وإحصائياته المذهلة، ونظائره من الأمراض الجنسية!

وأيُّ معنى لخطيب يتكلم في النكاح، والطلاق، ولا يعرّج على أثر الإعلام والمسلسلات الرومانسية، والروايات الغرامية، ولا يستشهد بالإحصاءات والأرقام، ويذكر كل ذلك بلسان العارف الخبير المطّلع، لا بلسان الناقل المتلقف المتخطّف!.

إن ثقافة الخطيب الشخصية ذات أثر بعيد في نجاحه، ويفترض أن ما يلقيه المتحدث في موضوعه لا يتجاوز (١٠%) مما قرأه حول الموضوع[١].

ومما يجمع ما يتعلق بمعارف الخطيب كتابُ «ثقافة الداعية» للشيخ يوسف القرضاوي، و«مرجعية الوحي للثقافة الإسلامية» للدكتور عبد الرحمن الزنيدي، وغيرها.

وبالجملة فالكتب يفضي بعضها إلى بعض، ويدل بعضها على بعض، وكلما ازداد اطّلاعه ازداد نهمه، وكلما اتسع علمه اكتشف سعة جهله.

(١) «الخطاب الدعوي» (٧٧).

ثانياً: الصّياغة اللَّفظية

إن الخطيب سيجمع مادة معرفية، لكنْ كيف سيصوغها؟ وكيف سيعبر عنها؟ أيجمع هذه النصوص ويضمّ بعضها إلى بعض، ثم يتلوها على الناس ويكون قد قام بما يجب عليه؟ أم إنّه يحتاج إلى اختيار المعلومة مع براعة في الصياغة، وانتقاء للعبارة، بحيث يُحسن إيصال هذه المادة للناس والتأثير بها عليهم؟.

والجواب بلا شكّ أنه يحتاج أن يكون لديه براعة لفظية تُميِّزه عن غيره، ليُحسِنَ التعبير عن معلوماته، ولا يسيء إلى تلك المعلومات حين عرضه لها، ويكون له أسلوبه الخاص الذي يميّزه ويُعرف به.

أمّا كيف يكوِّن الخطيب الثروة اللغوية؟ فإنّه يكوّنها بالقراءة في كتب البيان والأدب، التي توسع تعبيراته، وتثري مفرداته، بحيث يستطيع أن يعبر عن الفكرة الواحدة بأكثر من طريقة، ويعبر عن المعنى بأكثر من صياغة ولفظ، أمّا إذا كانت عباراته فقيرة فإنه يُحصَر في التعبير، وينقطعُ في الكلام، ولذلك نلاحظ بعض المتكلمين يُكثر من وصلات الكلام التي هي حشو بلا معنى، مثل قولهم: «في الواقع»، «في الحقيقة»،

«يعني» فهذه العبارات ومثيلاتها يلجأ إليها المتحدث عندما يعوزه التعبير، وتقل عنده المفردات، فيضطر إلى حشوها في الكلام حتى يسعفه ذهنه بكلمة جديدة، فمثل هذا يسيء إلى المعنى الذي يريد أن يعبر عنه.

وإذا كان هذا المتحدث عربيا يكلم عربا فالكتب العربية التي تفتق اللسان، وتثري البيان، وتوسع قاموس الإنسان ومفرداته كثيرة، مثل «البيان والتبيُّن» للجاحظ، و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي، و«جمهرة خطب العرب» لأحمد زكي صفوت، ونحوها.

وعليه أنْ لا يقف عند هذه، وإنما يصلها بالكتابات المعاصرة، لكي لا يتحدث إذا وقف على المنبر وكأنه بُعِث من غابر التاريخ، ولكنْ يكون في لغته مع المتانة ذوقٌ ومُعاصرة، فيقرأ لأدباء العصر، مثل المنفلوطي، وأحمد حسن الزيات، وعبد العزيز البشري، والطنطاوي.

ومن الكتب المفيدة للخطيب «صور من حياة الصحابة» لعبد الرحمن رأفت الباشا، وكتاب «رجال حول الرسول» لخالد محمد خالد، فصياغتها الأدبية رائعة.

ثالثاً: الأداء الخطابي

طريقة الإلقاء مهارة مثل مهارة التعبير، فكم من خطيب أعدّ خطبةً رائعة في مضمونها وصياغتها، لكنه قتلها بأدائه الفاتر، وطريقته الباردة، وأسلوبه المميت، فأكملُ الخطب هي التي أحياها تفاعلُ الخطيب في أدائها حتى استطاع أن يرفع بها الناس بين السماء والأرض، لأنهم شعروا أنهم يستمعون إلى وجيب قلبه، وليس إلى كلام لسانه، وهذه هي البراعة في الإلقاء، وهي في الدرجة الأولى موهبة، لكن يمكن للإنسان أن يطورها إذا كان يشعر بتقصير فيها، فيطورها بحضور دورات فن الإلقاء، وهذه الدورات يمكن أن تحرك مهاراتك، وتلفت نظرك لبعض الطرقِ التي يمكن أن يفيدك فعلها، والأخطاءِ التي عليك تجنّبها.

وأهم شيء هنا أن يفعل المتدرِّب ما يتعلمه بتلقائية، ولا يفعله بتكلّفٍ وكأنه ممثل.

ودورات الإلقاء كثيرة الآن، ولكنْ مِن أحسنها الدورات التي يعدها معهد كارنيجي، فهي ـ فيما أعلم ـ من أحسن الدورات التي يمكن أن يستفيد منها مَنْ يريد أن يتعلم مهارات الخطابة.

وأكثر ما تركّز عليه هذه الـدورات كيفية كسر حاجز الرهبة من الجمهور، والتغلب على الخوف، فهي من أهم التحدّيات أمام المبتدئ.

وإذا لم يتلقّ الخطيب تدريباً فيمكن أن يقرأ بعض الكتب التي تعلِّم هذه المهارة، ومن أفيدها كتاب «فن الخطابة» لديل كارنيجي، فهذا الكتاب من أفضل كتب فن الخطابة التي اطّلعت عليها واستفدت منها، وهو العمدة في بابه، واقتبست منه كثيرا في هذا الكتاب، وهناك كتب حديثة أعادت الصياغة ورتبتها مثل «المتحدث البارع» للأستاذ ياسر الحزيمي، أو «فن الإلقاء الرائع» للدكتور طارق السويدان، وغيرها.

ويطور مهارته بالاستماع للخطباء المؤثرين، فيستمع لهم بوعي ورصدٍ لطرائقهم، ويحاول أن يلتقط مهاراتهم، لأن كتب فن الخطابة إنما هي استقراءٌ لمهارات الناجحين، ولما قرأت كتاب «فن الخطابة» لديل كارنيجي، واستمعت إلى خطب الشيخ عبد الحميد كشك وجدت أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطبق كلَّ ما ذكره ديل كارنيجي، مع أني متأكد أنه لم يقرأ الكتاب، لكنه كان يمارسها ببراعته وفطرته.

وينبغي أن يستفيد الخطيب من سماع خطب الخطباء المؤثرين ولكنْ من غير أن يقلّدهم، وهذه مسألة في غاية الأهمية، لأن الاستفادة شيء والتمثيل والتقليد شيء آخر.

ثم تأتي الخطوة الأهم وهي: الممارسة، ثم الممارسة، ثم الممارسة، فتلك هي التي تطور الخطيب، وترفع مستواه، ولذلك يقول أحد الخطباء: كل الخطباء البارعين كانوا يوما ما خطباء سيئين. أي: أنهم كانوا كذلك ثم تطوّروا.

ويزيد الخطيب براعةً أن يستفيد من التقويم، سواءٌ أكان ذلك بأن يستمع إلى خطبه وينتبه لما أحسن فيه وما أساء، أو كان ذلك بتلقي التقويم من النُقّاد الناصحين إذا استمعوا إليه، فيأخذ منهم ما يفيده ويرفع مستواه.

ولا حرج على الخطيب أن يطلب من بعض أصحابه تقويم أدائه أملاً في تطوير مستواه، ممّن لديهم النُّصح له والرغبة في نجاحه.

والسؤال الذي يُطرح غالبًا: هل كل خطيب يحتاج إلى هذا الإعداد؟ وإلى اكتمال مثلث التكوين هذا؟.

والجواب: أن هذا هو المؤهِّل للخطيب الذي يعدّ نفسه ليكون خطيبًا مؤثراً يحمل رسالة، ويصمد إلى هدف، ويرى لخطبة الجمعة أهميتها وتأثيرها، ويحتسب عند الله كل ما يبذله في إعداد نفسه لها.

هذه وصفة لمَن يريد لخطبته أن تكون ذات رسالة وأثر، وإضافة وإفادة، هذه وصفة لمَن يتساءل باهتمام قبل أن يخطب ما هو أهم ما أتحدث عنه وأولى ما يحتاج الناس إليه؟ ثم يتساءل بقلق، بعد أن يخطب: هل حققت الأثر؟ هل أصبت الهدف؟.

هذه وصفة لكل من يعتني بنفسه منذ أن يستلم المنبر إلى أن يغادره، فهو يوسّع معلوماته، ويطوّر مهاراته، ويجوّد أداءه، ويريد أن يكون في كل خطبة أفضل منه في سابقتها، فهو شخصية نامية متطورة.

أمّا مَن قَنِعَ أن يكون مجرّد رقم مِن آلاف الخطباء، وأنه ليس إلّا موظّفًا في وزارة الأوقاف من حين تعيينه إلى تقاعده فهذا لا يحتاج إلى ما ذكرته، وإنّما يكفيه كتاب من دواوين الخطب العتيقة، يعيده كلّما انتهى منه، وحسبه أداء وظيفته واستلام راتبه، «**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[1].

ولذا فإن على الخطيب المتهم بخطبته وأثرها أن يراعي أموراً، منها:

١ ـ مظهر الخطيب:

يجب أن يكون مظهر الخطيب يوم الجمعة مظهراً متميزاً، يشعر الناس أنه قد استعد لهذا الموقف بأحسن لباسه، ونوع اللباس الذي فيه تجمُّلٌ يختلف بين البلدان، لأن العناية باللباس هي من احترام الداعين لك أو الحاضرين إليك، كما أنّ التبذّل في المجامع العامّة إزراءٌ بالمجتمعين، واستخفاف بهم، وإن خطبتك تبدأ قبل أن تصعد المنبر، حيث يشكّل الحاضرون انطباعاً عنك من مظهرك وحركاتك فور رؤيتهم لك، وقد كان النبي ﷺ يعتني بيوم الجمعة، فكان له ﷺ حلة يلبسها في العيدين والجمعة، غير لباسه المعتاد.

ولمّا رأى عمر حلّة من حرير تباع عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه، فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك[2].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٦٨).

إنّ عمر إنّما فعل ذلك لِما رأى من عادة النبي ﷺ في عنايته بلباس يوم الجمعة والعيد وحفاوته بهما.

٢ ـ التواصل البصري:

الاتصال البصري بين الخطيب وجمهور المستمعين والحضور من المصلين في غاية الأهمية، بحيث يُجرِي الاتصال البصري قبل بداية الخطبة، ويكون في نظراته ثقة وعموم، فلا تكون موجهة إلى ناحية أو شخص أو صف، ولِذا يقال: ألقِ بصرك إلى أقصى الحاضرين، بحيث يستوعب نظرُك جميع الحضور.

والتواصل البصري يعزز الإقناع بالخطاب، لأن نبرة الصوت لغة، ونظرة العين لغة، وملامح الوجه لغة، وإشارة اليد لغة، فكل هذه لغات ناطقة مع نطق الخطيب بما يقول، ووسائل تأثير، ولذلك رمق الصحابة عيني النبي ﷺ وهو يخطب فقالوا: كان إذا خطب علا صوتُه، واحمرت عيناه[١].

٣ ـ مهارة الارتجال:

الارتجال من الخطيب الموهوب المتمرس أقوى أثراً وأبلغ في إيصال الرسالة وأكثر انفعالا وتفاعلا، وانشداد الناس إلى الخطيب المرتجل المتمكن من موضوعه أشدّ وأبلغ، ولذلك فأشهر الخطباء كانت خطبهم ارتجالا.

---

(١) يُنظر: «صحيح مسلم» (٨٦٧).

والخطيب المرتجل يتحكم بالتواصل البصري، وبنبرات الصوت، وبالإشارة، بحيث تكون كلها متفاعلة مع خطبته، أما إذا كان ممسكًا الورقة بيديه فقد انقطع التواصل البصري، وانقطعت الحركة المعبرة، وغابت سحنة وجهه خلف ورقته التي يقرأ فيها.

ولكن لا يملك كل خطيب القدرة على أن يرتجل خطبته، فإذا لم يكن الخطيب يستشعر من نفسه الأهلية والاقتدار لارتجال الخطبة فإنه يمكن أن يتدرج في الوصول إلى مرحلة الارتجال، ولا يقفز إليها فجأة.

وذلك بأن يكتب مقدمة الخطبة، لأن مقدمة الخطبة لا تحتمل الشرود وتجميع الأفكار، إنّ مقدمة الخطبة مثل إقلاع الطائرة تكون بسرعة ووثـوق، وإن الناس إذا شعروا بحيرتك في بداية خطبتك هبطَتْ مكانتك ووقْعُ خطبتك عندهم، فتكتب مقدمة الخطبة، وتكتب عناصرها، والأدلـة التي تستشهد بها، فهذا يعطيك مرونة في أداء الخطبة، ويعطيك في الوقت نفسه انضباطًا في أدائها، فهذه الورقة التي معك ليس فيها الخطبة كاملة ولكنها مثل سكة القطار التي تسير عليها، وبالتجربة وجدت أن هذا من أيسر الطرق وأفضلها للاستعداد بعد ذلك للارتجال كاملا.

٤ ـ فن الإشارة:

إذا اقترنت الإشارة باللغة في موضعها الملائم أثّرت تأثيراً عظيمًا، وأوضحت رسالة المتكلم وأوصلتها، واشترك السمع والبصر في فهم المعنى واستيعابه، وقد نقلت لنا إشارات النبي ﷺ مع كلامه في أحاديث، منها:

قوله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا**» وأشارَ بإصبعيه السبابةِ والوسطى، وفرجَ بينهما شيئا[١].

وقوله ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» وضمّ إصبعيه السَّبابةَ والوُسْطى[٢].

وقوله ﷺ: «**إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ[٣].

والإشارة والإيماء ليس لباسًا، أو قواعد محسوبة كجدول الضرب، ولكنها تعبير خارجي عن حالة داخلية، وإن حركات الإنسان أشياء شخصية خاصة به، وبما أن الناس مختلفون فإن حركاتهم ستكون فردية إذا ما تصرفوا بشكل طبيعي، فهي خاصة كنبرة الصوت وبصمات الأصابع.

ولا يمكن إعطاء قواعد للإيماء والحركة، لأن كل شيء يعتمد على شخصية الخطيب، وتحضيره وحماسه وموضوعه، وعلى الجمهور والمناسبة.

وهناك أساليب غريبة تُلقى اليوم باسم «لغة الجسد»، وإن هذه الإرشادات كمن يحاول أن يجعل من الإنسان إنسانا آليّا (روبوت)[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٣٠٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩٣٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٥).

(٤) «فن الخطابة» لديل كارنيجي.

إن أهم شيء في الحركة أن تكون فعلا لا إراديّـًا، وليست افتعالاً وتمثيلاً.

وإذا كنت تخطب أمام الناس فإنك لن تستحوذ على استحسانهم إلا عندما تخطب بأسلوب طبيعي، لدرجة أن مستمعيك لن يشعروا أبداً بأنك تلقيت تدريبـًا على فن الخطابة.

ومن المهم أن يشعر المشاهد للخطيب أن أداءه كله في تفاعله ونبرة صوته وطريقة إلقائه كله تفاعل خاص مع ما يقول، كما يقال: ينبغي للخطيب الناجح أن لا يَشعر أحدٌ أنه قد أخذ دروسـًا وتدريبات في الخطابة. بل يشعر الحاضرون بأنّ كل ما يصدر منك إنما هو من ذاتك، وانفعالك وتفاعلك.

٥ ـ تنوّع الصوت:

فلا يكون صوته على طبقة واحدة، أمّا متى يرفع؟ ومتى يخفض؟ وكيف يستفهم؟ ومتى يتعجب؟ فالجواب أن هذا مما لا توضع له قاعدة، وإنما يكون الخطيب هو فارس الميدان، وهنا يقع التفاوت في حكمة الخطباء وطريقة أدائهم.

إذن لا بُدَّ للخطيب أن يكون متقنـًا لهذا الفنّ، وهو كيفية استعمال الصوت، ومن جُملة ذلك توظيف الخطيب السَّكَتات في مكانها اللائق بها.

ويمكن أن نذكر هنا مثالا من السنة النبوية، فالنبي ﷺ كان في بعض الأحيان يُسأل فيسكت، وحين يقال: «سكت» فلا نظنّ أن هذا السكوت طويل محيّر، بل هو ثوانٍ قليلة، لكن الذهن يذهب في هذه المدة القصيرة كل مذهب، حتى يقول الحضور: هل سمع ما قال؟ لعله لم يسمعه؟، لعله كره هذا السؤال؟، هذه اللحظات القليلة من التّساؤل يقطعها جواب النبي ﷺ، فهل تتوقع أن أحداً من الحضور في هذا المجلس سينسى هذا بعد أن شهد هذا المشهد؟!.

ومن ذلك حديث أبي مسعود الأنصاري، قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك؟ فسكت رسول الله ﷺ، حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**قُولُوا اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ**»[1]. فهل سينسى أحد ممن حضر مجلسه جواب النبي ﷺ الذي جاء على تشوّف وانتظار؟.

إنك من خلال صمتك تتكلم، فالصمت يصير ذهبيًا حين تستخدمه وأنت تتكلم، وهو أداة قوية ومهمة لا ينبغي إغفالها.

كان لينكولن يتوقف بعد كل جملة يريد توكيدها، فكان يضيف إلى قوتها من خلال الصمت إثارةً تجعل المعنى يتعمّق ويؤدي رسالته[2].

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٠٥).

(٢) «فن الخطابة» لديل كارنيجي.

٦ ـ تجنّب العبث:

كعبث الخطيب بلحيته، أو حك وجهه أو رأسه، أو العبث بغطاء رأسه، أو بلاقط مكبر الصوت، أو كثرة النظر إلى ساعة يده.

فكل ذلك يرسل رسالة سلبية للمستمعين ويشعرهم أنه غير متفاعل مع ما يقول.

الفصل الثالث

إعداد الخطبة

إعداد الخطبة

لإعداد الخطبة مراحل يسير فيها الخطيب لتحضير مادة خطبته وجمع شتاتها، ثم الانتقاء والصياغة والتحرير، وهو يسير في هذا بخطوات يعقب بعضُها بعضـًا، وذلك بعد أن يختار الموضوع ويحدد الهدف، ومِن عُدَّة الإعداد:

١ ـ جمع الشواهد من الوحيَين:

وهذا أهم شيء في جمع المادة العلمية، فلتكون خطبة الجمعة خطبة شرعية دينية حقّـًا فلا بُـدّ أن يكون عمودها آيـات القرآن، وصحاح الأحاديث، فيستعدّ الخطيب بجمع الآيات والأحاديث في الموضوع، ثم قراءة تفسير الآيات وشروح الأحاديث، بحيث يحسن الاستشهاد بها.

والاستشهاد بالقرآن الكريم براعة يتمتع بها من يستحضر آيات القرآن، لذلك يتفاوت الناس في القدرة على استحضار الآيات، وما لم تكن مستحضراً لها قبل الخطبة فلن تسعفك في وقت الخطبة.

ومن الأمثلة المتميزة للعلماء الذين عندهم هذه البراعة ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حتى وإني كنت إذا قرأت كتبه أقول: لو أنّ أحداً قرأ كتب ابن تيمية وهو لا يعرف القرآن فسيظن أن القرآن في مئة مجلد، لكثرة ما يستشهد بآيات القرآن الكريم، فالآيات تجري بين كلامه، فيتردّد في صفحات كتبه تنوّع الاستشهاد، كقوله: «كما قال تعالى»، «... لقوله عَزَّوَجَلَّ»، «ودليل ذلك قوله تعالى...»، «ولذا قال جَلَّوَعَلَا...» وهكذا.

ومثله شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا ألقى كلمة وإن كانت قصيرة فستجدها مزدحمة بالاستشهاد بالآيات، فهي العمود الفقري لخطبه.

والقرآن كتاب طواف في الكون، وَصَّافُ لآفاقه، متغلغل في شؤون الحياة يتناولها بالسرد والحكم، ويشرح وصاياه للفرد والمجتمع والدولة في شمول وهيمنة، ويستشف خبايا الأنفس والعقول، فلا يَدَعُ ريبة ولا شبهة إلا أزاحها.

والخطابة الإسلامية حقـًا، هي التي تأخذ من القرآن وتسير معه[1].

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يخطبون بآيات القرآن وسوره، ومما ورد في ذلك:

عن صفوان بن يعلى عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧][2].

(١) من كتاب «مع الله» للغزالي.

(٢) «صحيح مسلم» (٨٧١).

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان، قالت: ما حفظت سورة «ق» إلا مِن فِي رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة[1].

وعن جابر بن سمرة قال: كان لرسول الله ﷺ خطبتان، كان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس[2].

وعن عبد الله بن أبي بكر، أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وهو على المنبر، فلما بلغ السجدة التي فيها نزل فسجد، فسجد الناس معه[3].

وقرأ عمر يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل، فسجد وسجد الناس معه[4].

٢ ـ جمع المادة العلمية:

فيجمع الخطيب الكلام الذي قيل في موضوعه من كلام الخطباء، والعلماء، والباحثين، وسيجد مواد كثيرة مكتوبة ومسموعة، وأصبح هذا الأمر الآن في غاية اليسر بسبب وجود شبكة الإنترنت ومواقع المعلومات ومنابر الخطب، فيلتقط الخطيب أجود ذلك ممّا يناسب حاله ومقاله.

(١) «صحيح مسلم» (٨٧٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٦٢).
(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٥٢٨٦).
(٤) «صحيح البخاري» (١٠٧٧).

وينبغي عند جمع المادة العلمية أن يحذر مما يسمى بذئب المعلومات (الذئب الهيجلي)[١]، والذي قد يفترس الخطيب، ولذلك فإن الخطيب البارع إنما يختار المُهم، ثم يلخّص الأهمّ، ثم يختار ما يناسب منه للخُطبة، ويحذر من عدم تنسيق معلوماته، فإنه إذا لم ينسّق المعلومات ويحسن الاختيار منها ضاع بينها، وكلّما حصّل المزيد منها زاد ارتباكه وتشتته، وقد قيل: «السر في أن تكون خطيبا مُمِلًّا هو أن تقول كل شيء».

ولا بأس في البدايات من انتقاء بعض الخطب المناسبة، والتي توافق قناعاته وتغطي الموضوع الذي يريد أن يتكلم عنه، ويكتفي باختصارها، أو الإضافة إليها، والحذف منها، حتى تكون مناسبة له، ويكون تركيزه على حسن الإلقاء وجَودته، حتى يتمرّس على الإعداد ويتقنه، ثم يستقل بالإعداد تماماً.

٣ ـ خصائص الخطاب الجماهيري:

والخطاب الجماهيري له منهجه وأساليبه وطرائقه.

ولجوستاف لوبون كتاب «سيكولوجية الجماهير»، وهو مختصر مفيد ينبغي أن يقرأه الخطيب ويلخّصه ويستفيد منه، ومن أهمّ ما ذكر فيه:

---

(١) نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيغل، ويُراد بهذا المصطلح الاستغراق في جمع المعلومات إلى درجة الغرق فيها، وعدم القدرة على استيعابها وتنظيمها، وينُظر: «رحلتي الفكرية» لعبد الوهاب المسيري (١٧٨).

أ. أن تفكير الإنسان واستجابته مع الجمهور غير تفكيره واستجابته لو كان وحده.

ب. وأن خطاب الإقناع الجماهيري أسهل من الإقناع الفرديّ، وهذا مما يستفيد منه الخطيب في الحثّ على مشاريع الخير والمعروف، فإن استجابة الإنسان ضمن المجموع أقرب من استجابته إذا طُلب إليه ذلك وحدَه.

ج. وأنّ الخطاب المؤثر في الجماهير هو الخطاب العامّ وليس الخطاب التفصيلي، فمساحة الاتفاق هي مساحة الطرح العامّ، وأمّا التفصيل والتقسيم فلا يناسب أن يكون خطاباً جماهيريّاً، لأنه يحتاج إلى متابعة وتركيز، ولأن التفاصيل هي أدغال الاختلاف، وقد قيل: «الشيطان يكمن في التفاصيل».

إن خطبة الجمعة خطاب عام، وليس مناجاة فردية، وللخطاب الجماهيري طرائقه وقواعده الخاصة، فالخطاب الذي يقوم على التفكير والتحليل العقلي يلقى بطريقة فردية، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، لأن التفكير إمّا أن يفكر الإنسان بنفسه أو يفكر مع من يحاوره، وليس في حشد جماهيري.

أمّا خطبة الجمعة فهي خطاب عام لجميع الحاضرين مع اختلاف مستوياتهم، واختلاف أعمارهم، واختلاف تعليمهم، واختلاف مسؤولياتهم، فيحتاج إلى مراعاة هذا المعنى، فلذلك كان لخطاب الجماهير لغته وطريقته الخاصة.

د. ومما يُميّز خطاب الجماهير خضوعه للعاطفة أكثر، فالخطاب الجماهيري ليس خطابا يقوم على البرهنة والتفكير المنطقي، ونقصد بالخطاب العاطفي الذي يشكّل دافعية وحماسةً وإيمانًا بالفكرة، فهذا يناسبه الخطاب الجماهيري.

هـ. إن الخطاب الجماهيري يكتسب انتشار العدوى بالاجتماع، بمعنى أن الفكرة تنتشر بالعدوى بين الجماهير، ولو أنك خاطبت كل واحد وحدَه لم تجتمع القناعة كما اجتمعت عندما اجتمعوا إليك جميعا.

و. إن الجماعة أقدر على العمل والتنفيذ منهم على التفكير، ولذلك يناسب في الخطاب الجماعي العام أن تُطرح طريقة عمل، فخطيب الجمعة عندما يأمر بفعل خير أو يأمر بمشروع خير أو بعمل صالح فهذا مناسب للخطاب الجماهيري.

ز. الخطاب الجماهيري ينبغي أن يكون مُجمَلاً، فلا يكون فيه تقسيم وتعداد علمي، فلا يصلح أن يعدد الخطيب في خطبة الجمعة شروط الصلاة أو أركانها، لأن ذلك خطاب تفصيلي، ولكن يمكن أن يتكلم عن فضل الصلاة، وأهمية الصلاة، وصفة الصلاة، ونحو ذلك، وأمّا الشرح التعليمي فمكانه الدرس العلمي.

٤ ـ بشِّروا ولا تنفّروا:

أوصى رسول الله ﷺ معاذاً وأبا موسى رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن فقال: «**بشِّرا وَلَا تُنَفِّرا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا**»[1].

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٤١)، و«صحيح مسلم» (١٧٣٣).

وهذه وصاة لكل داعية وخطيب، أن تكون دعوته بُشرى لكل مقبل، وهـؤلاء الذين أتَـوا إلى المسجد مصلّين أتَـوا مقبلين فلنستقبلهم بالبُشرى، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وذلك بفتح أبواب الرجاء والقبول، وإطماع كل مستغفرٍ بالمغفرة، وكل تائبٍ بالتوبة، وكل عاملٍ بالقبول.

وبيان سَعة رحمة الله وعفوه ويسر المعاملة معه، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ومن أنواع التنفير والتعسير التشكيك في قبول الأعمال الصالحة، وأنك لا تـدري: هل قُبِلت صلاتك؟ هل قُبِل صيامك؟ هل قُبِلَت صدقتك؟ مع أنه فَعَل ما يجب عليه حسب استطاعته، وكـأنّ قبول الأعمال الصالحة مغامرة لا نعلم عاقبتها، وبذلك تصبح الطاعة رهقًا وقلقًا بدل أن تكون راحةً وأنسًا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]، وما أقبل اللهُ بك إلّا ليقبلك، وما قرّبك إلّا ليعطيك، وإنما نسأل الله القبول لعلمنا بتقصيرنا في العمل، وقصورنا عن أداء حق الله علينا؛ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

ومن ذلك الكلام عن ذنوب الخلوات، وأنها تسبب الانتكاسات، وتُحبِط الأعمال الصالحات مع أنّ الخطر هو في المجاهرة بالذنب وليس في ستره، والمجاهرة بالذنب هي من إعلان المنكر وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، قال ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ**»[(١)].

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٩٠).

وإنما ينبغي أن يُذَكَّرَ المستتر بالذنب أن سِتر الله عليه دعوةٌ له إلى التوبة، وأن عليه أن يُكاثِر السيئات بالحسنات، فإنّ الحسنات يُذهبن السيئات[١].

٥ ـ تفاءلْ وانشرِ الفأل:

فمن عجائب سيرة النبي ﷺ أنك تراه في أوقات الشدائد أكثر ما يكون تفاؤلاً واستبشاراً، يأتيه المستضعفون في مكة يشكون شدة الأذى، فيبشرهم بمسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله، ويحاصَر يوم الأحزاب فيبشر بقصور كسرى وقيصر.

ولذا فإن ما تمرّ به الشعوب المسلمة اليوم من مآسٍ وآلامٍ هي أعراضٌ قد مرت الأمة بأشدّ منها، ثم عبرتها وتعافت منها، ومن الخطأ أن نقول: إنّ الأمة لم تمرّ بحالة كربٍ وتسلط وعدوان أشدّ مما تمرّ به الآن.

فهذا الكلام جهلٌ بمسيرة التاريخ وأحداثه، فما فعله التتار والصليبيون أشد وأفظع، ومع ذلك تجاوزته الأمة، ومهما قلنا عن زمننا هذا، فإن من نعم الله فيه زيادة مستوى وعي المسلمين بدينهم ومعرفتهم بأحكامه، وانتشار الإسلام المتسارع في نواحي الأرض، فهو أسرع الأديان انتشاراً، مع أن حال المسلمين لا تساعد على نشره.

ولِذا فينبغي للخطيب أن لا يحوّل الخطب إلى مناحات وبكائيّات، ولكن يتفاعل مع الآلام بأمل، ومع المآسي برجاء، وأن لا يضخّم السلبيات، ويجعلَها حجاباً عن الإيجابيات.

---

(١) يُنظر: مقال «رُهاب ذنوب الخلوات» للمؤلف.

لقد ارتسمت صورة الخطيب في أذهان بعض الناس بالشخصية الناقدة للمجتمع وانحرافاته وأخطائه، الباحثة عن الأخطاء لمعالجتها والتحذير منها.

إن من المهم خروج الخطيب من هذه الدائرة بحيث يضم إلى ذلك إشاعة التفاؤل والثناء على الإيجابيات وتشجيع المبادرات الخيّرة، بحيث يكون أداة مساعدة لتحسين واقع الناس وتشجيعهم، وليس منحصِراً في لومهم وتقريعهم.

٦ ـ التجديد في الطرح:

أنت لا تستطيع أن تجدد في الموضوعات، فإذا جاء رمضان ماذا ستخطب؟ ستخطب عن الصيام وفضل رمضان، لن تخطب في موضوع آخر، لكن هل سأعيد كل مرة الكلام نفسه؟ نقول: تعيد المضمون نفسه لكن تجدّد في طريقة العرض، وحين تجدد في طريقة العرض فكأنك طرحت موضوعـًا جديداً، والخطيب الذي عنده اقتدار ويبذل جهده في القراءة في الموضوع سيجد زوايا جديدة لطرح الموضوع، فقد يكون الموضوع مطروقا بكثرة لكنْ يكون التجديد في طريقة عرضه.

ذكر الشيخ القرضاوي أنه ذهب وهو طالب لسماع محاضرة عن الهجرة فقال: ظننا أن المحاضر سيتحدث عن الغار والعنكبوت والحمامتين، وإذا به يتحدث عن سنة هجرية جديدة هي كراسة جديدة نظيفة، أصبحت بين يديك لتكتب فيها بأعمالك ما يبقى فيها، فاحرصْ على أن لا تكتب فيها إلّا كل جميل، فكانت مؤثرة وجاذبة، حتى إني حفظتها، وصرت أُسمّعُها بعد ذلك لأقاربي.

٧ ـ الوضوح:

ينبغي أن تكون فكرة الخطبة واضحة إلى درجة التألق بحيث لا تقبل أكثر من تفسير، ولا تُؤول بأكثر من احتمال، وأن لا يخرج الناس وهم يقولون: لعله يقصد كذا، ولعله يريد كذا...

إن خطبة الجمعة بيان للناس وليست ألغازاً، ولا إدغاماً بغنة.

وقضايا الشرع التي تطرح على الناس واضحة جلية، وإنما يحصل الغموض عادة إذا كان للخطيب مرادات خفية يريد أن يُسَرِّبها من خلال خطبته، وهذا ما يجب أن تصان عنه منابر الجمعة، ومقامات البلاغ عن الله.

٨ ـ التعليم في الخطبة:

كان خطيب الجامع الكبير في مدينة الرياض يذكر في بعض خطبه أحكاما فقهية في العبادات والمعاملات مما يحتاجها الناس، وذكر مرة بعض التعاملات التجارية التي يخطئ الناس فيها، وطريقة تصحيحها، فلما مررت في السوق بعد العصر سمعت الباعة وهم يتحدثون عما سمعوه، ويتذاكرون به، فكان ذكره ذلك في الخطبة تصحيحا لتعاملاتهم.

ولِذا فإنّ ممّا يعتني به خطيب الجمعة تعاهد الناس بالتعليم في ما يحتاجونه وممّا يتكرر في حياة الناس التساؤل عنه من أحكام الدين، وحسب احتياج كل مجتمع، وبهذه الطريقة تصحَّح عبادات الناس،

ومعاملاتُهم، وقد كان ﷺ يعلّم على المنبر أحكامًا يحتاج الناس إليها، ومن ذلك:

حديث صلاة النبي ﷺ على المنبر، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: لقد رأيت المنبر أول يوم وضع، وأول يوم جلس عليه رسول الله ﷺ، أمر به فوُضع هاهنا، ثم رأيت رسول الله ﷺ صلّى عليه، وكبّر وهو عليه، ثم ركع وهو عليه، ثم نزل القهقرى فسجد في أصل المنبر ثم عاد، فلمّا فرغ أقبل على الناس فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا، وَلِتَعَلَّمُوا صَلَاتِي**»(١).

وعنِ ابنِ عمرَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ على هذا المنبرِ، وهوَ ينهى الناسَ إذا أحرموا عما يكرهُ لهمْ: «**لَا تَلْبَسُوا الْعَمَائِمَ، وَلَا الْقُمُصَ، وَلَا السَّرَاوِيلَاتِ، وَلَا الْبَرَانِسَ، وَلَا الْخُفَّيْنِ إِلَّا أَنْ يُضْطَرَّ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِمَا، فَيَقْطَعَهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ، وَلَا ثَوْبًا مَسَّهُ الْوَرْسُ، وَلَا الزَّعْفَرَانُ**»(٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَطَبَنَا رسول الله ﷺ فَبَيَّنَ لَنَا سُنَّتَنَا وَعَلَّمَنَا صَلَاتَنَا، فَقَالَ: «**إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ، ثُمَّ لْيَؤُمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذْ قَالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾** [الفاتحة: ٧] **فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمُ اللهُ، فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا وَارْكَعُوا، فَإِنَّ الْإِمَامَ يَرْكَعُ قَبْلَكُمْ، وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ**»،

(١) «صحيح البخاري» (٩١٧)، و«صحيح مسلم» (٥٤٤).

(٢) «مسند أحمد» (٤٨٦٨)، و«صحيح البخاري» (١٣٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٧).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَتِلْكَ بِتِلْكَ وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَإِذَا كَبَّرَ وَسَجَدَ فَكَبِّرُوا وَاسْجُدُوا، فَإِنَّ الْإِمَامَ يَسْجُدُ قَبْلَكُمْ، وَيَرْفَعُ قَبْلَكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَتِلْكَ بِتِلْكَ، وَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْقَعْدَةِ فَلْيَكُنْ مِنْ أَوَّلِ قَوْلِ أَحَدِكُمْ: التَّحِيَّاتُ الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلهِ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»[1].

ومع نُضوب موادّ التعليم الشرعي في كثير من مناهج الدول الإسلامية، فلا بُدَّ أن ينهضَ منبرُ الجمعة بدوره في التعليم لـمَلء هذا الفراغ، وسدِّ هذه الثغرة.

ويُراعي الخطيب عرضَ الأحكام المتّفق عليها من غير دخول في الخلاف، ولا في التفصيل التعليمي، ولكن يعمد إلى المسألة ويبيّن حكمها ودليلها بما يفهمه عامّة الناس، وأن تكون هذه المسائل مما يعايشه الناس ويعرض لهم في حياتهم، وليست مسائل مفترضة أو نادرة الوقوع، وإنّما يذكر للناس ما يعايشونه ويتساءلون عنه، كأن يذكر في رمضان متى يمسك الصائم عن الطعام والشراب، أو حكم بعض ما يتساءل الناس عنه هل هو من المفطرات، مثل استعمال معجون الأسنان، أو حقنة الإبرة، ونحوها.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤٠٤).

أو يعلّمهم ما يحتاجونه من أحكام الصلاة، أو صفة صلاة الجنازة، أو متى تجب الزكاة في المال، ولِمَن تُدفع الزكاة، وأحكام المرأة المعتدّة عدة وفاة، ونحو ذلك من الأحكام في مناسباتها، وبهذه يرتفع مستوى وعْي المصلين، ويصحَّحُ تديُّنَهم، ويَزدادُ علمُهم.

وتجمع خطبة الجمعة بذلك بين الموعظة والتعليم.

٩ ـ هي خطبة وليست محاضرة:

على الخطيب أن يراعي الفرق بين الخطبة، والمحاضرة، والدرس العلمي، فالخطبة شحنة وجدانية مُركَّزة توصل فكرة محددة، ولذا فإنها لا تحتمل التفصيل والتقسيم والتعداد، والذي يناسبه الدرس العلمي أو المحاضرة العامة.

إن تفاوت مستويات الحضور يحتم على الخطيب أن يتحدث بخطاب مجمل، يصمد إلى محكمات الشريعة ومعاقد الدين بوضوح وإيجاز، ويدع التفصيل والشرح العلمي في دروسه المسجدية وكلماته التي يلقيها في غير خطبة الجمعة.

فلا يصلح أن يطرح موضوعاً بطريقة تحليلية تعتمد السَّبر والتقسيم الذي لا يناسبه المنبر الخطابي.

ولا أزال أذكر خطبة حضرتها تحدث فيها الخطيب عن أمراض القلوب ولكنه بدل أن يعرضها بطريقة وعظية عرضها بطريقة تفصيلية تعليمية، فتحدث عن أسباب أمراض القلوب وجعل يعددها واحداً واحداً حتى عدّ منها عشرة أسباب، ثم ذكر أعراضها فعدّدها في عشرة أعراض،

ثم ذكر طرق علاجها فذكر عشرة طرق، فطال الموضوع وتشعب، وانقطع حبل المتابعة من الحاضرين وظهر عليهم السأم والضجر، وظهر لي أن هذا الخطيب ـ جزاه الله خيراً ـ قد لخص خطبته من كتاب بطريقة مدرسية وكأنه بحث أكاديمي، وألقاه في غير مكانه اللَّائق به، فبالغ في الاجتهاد وأخطأ في الطريقة.

الفصل الرابع
أداء الخطبة

أداء الخطبة

١ ـ روح الخطبة:

اطلعت على كتاب جمع خُطَبَ خَطيبٍ مشهور لم تدركه أعمارنا، ولكنْ سمعنا عن تأثير خطبه المدهشات، وأن استماع خطبة له كثيراً ما كان نقلة في مسيرة مستمعيه لقوة تأثيره، وما يبثه في خطبه من وعي وإحساس وحماس، فلما اطلعت على الكتاب وقرأته تعجبت، وقلتُ: سبحان الله! كيف لا أجد هذا الأثر الذي يُقال عن خطبه عندما أقرؤها؟! ثم علمت أنّ الذي فقدته هو روحه التي كان يبث بها هذه الكلمات، أما أنا فقد وصلت إلي الكلمات هامدة جامدة، فقد كان أداؤه لها فيه تفاعل وانفعال وروحٌ وحياة، فإثارة اهتمام الناس وشد انتباههم والتأثير في مشاعرهم مرتبط بانفعال الخطيب وتفاعله مع ما يقول.

وقد كان ﷺ يخاطب الناس بحرقة، ويجدون اللوعة في نبرة صوته، ويظهر هذا في حمرة وجهه وتغير عينيه لشدة انفعاله، وهذا يدل على شدة تشبعه وقناعته بما يقول.

خطب ﷺ مرة فجعل يقول: «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**». حَتَّى قال النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ رَجُلاً كَانَ بِالسُّوقِ لَسَمِعَهُ مِنْ مَقَامِي هَذَا، حَتَّى وَقَعَتْ خَمِيصَةٌ كَانَتْ عَلَى عَاتِقِهِ عِنْدَ رِجْلَيْهِ[1].

وحدّث ﷺ أصحابه فقال: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: «**الإِشْرَاكُ باللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**» وكانَ متكئا فجلسَ وقالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّور**»، فما زالَ يكررها حتى قالوا: ليتهُ سكتَ[2].

لقد تمنى الصحابة سكوت النبي ﷺ إشفاقًا عليه، لِما رأوا من تأثره وانفعاله في تحذيره.

إنّك تشعر أنه ﷺ كان يُذيب نفسه وهو يحذّر أمّته.

ولتكون الخطبة مؤثرة لا بدّ أن تكون متوقدة في نفس المتكلم، وبقدر توقدها في نفس المتحدث تنتقل هذه الشعلة إلى قلوب المتلقين والمستمعين.

وما أجمل العبارة التي قالها أحد الدعاة: آمن أنت أولا بفكرتك إلى حد الاعتقاد الحار، عندئذ فقط يؤمن بها الآخرون، وإلا فستبقى مجرد صياغة لفظية خالية من الروح والحياة.

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦٥٤)، و«صحيح مسلم» (٨٧).

إنّ كل فكرة عاشت فإنها اقتاتت من روح إنسان، أما الأفكار التي لم تطعم هذا الغذاء المقدَّس فقد وُلِدَت ميتة، ولن تدفع بالبشرية شبرا إلى الأمام.

وقيل: كلّ كلامٍ يخرج وعليه كسوة القلب الذي منه خرج.

فما لم يكن الإنسان مؤمنـًا بفكرته، معتقداً بها، متحمسـًا لها، متفاعلاً معها، فستبقى مجرد صياغة لفظية، لا حياة فيها ولا روح، فروح الخطيب هي ما يكسو الخطبة حيوية وحياة، ولذلك نجد خطبـًا كثيرة كان لها دوي وأثر، ثم تقرؤها الآن فلا تجد هذا الأثر في نفسك، فتتساءل: أيُعقل أن هذه هي التي أثرت في الناس؟، والجواب باختصار: إن الذي كان حاضراً في الخطبة ليس هذه الكلمات فقط وإنما روح المتحدث وحيويته وانفعاله.

فتفاعل الخطيب مع خطبته هو من أقوى أدوات التأثير ولذلك يقال: أكثر الخطب تأثيرا هي ما كان الخطيب فيها في أعلى درجات التوتر. أي: أعلى درجات التفاعل مع ما يقول، بحيث يكون متفاعلاً معه، فالخطيب لا يتكلم بلسانه فقط، فنبرة صوته لسان، ونظرة عينيه لسان، ولمحة وجهه لسان، وكلّ هذا إذا كان الخطيب متشبعـًا بما يقول.

إنّني أتخيل هتاف النبي ﷺ وهو يقول: «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**»[1]، أتخيله كمن يرى الناس مندفعين إلى هاوية حريق، فهو في غاية الانفعال يريد أن يحذرهم، ويمسك بهم أن يقعوا في النار،

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

ولا يخمد هذا الانفعال إلا اذا كان الخطيبُ خامدَ الإحساس غيرَ متشبِّع بما يقول.

ولا شك أن لكل مقام ما يناسبه، فهناك من الموضوعات ما يناسبه الهدوء، فتتحدث وكأنك تهمس إلى كل مستمع في أذنه، ولكن عندما أُحذّر من عقوبة ذنب أو أستنهض لعمل فإن الانفعال والتجاوب مهم جدا.

وكونه ﷺ تحمر عيناه، ويعلو صوته، ويشتد غضبه في حال خطبته، فهذا كان منه في أحوال، وهذا مشعرٌ بأن الواعظ حقه أن يكون في وعظه بحسب الفصل الذي يتكلم فيه، حتى لا يأتي بالشيءِ وضدُّه ظاهرٌ عليه[١].

ومن التفاعل رسم الصور البيانية التي تقرب المعنى وتجعل الناس يعيشون معك الهدف الذي تريد أن توصله، عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ**» ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ**» ثم أعرض وأشاح ثلاثا، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**»[٢].

فقد كان يكفي أن يقول للناس: تصدقوا، لكنه لم يكتفِ حتّى صوّر لهم ذلك بصورةٍ تجعل المخاطَب يتصور النار أمامه.

---

(١) «المفهم» للقرطبي (٢/ ٥٠٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٩٥)، و«صحيح مسلم» (٦٥٤٠).

ولعل جزءاً منه يتبين في مثل صفة الرسول ﷺ حالَ الخطبةِ، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه ﷺ كان إذا خطب احمَرّت عيناه، وعلا صوتُهُ، واشتد غضبُهُ، حتى كأنّه منذرُ جيشٍ يقول: «**صَبَّحَكُم وَمَسَّاكُمْ**»، ويقول: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، ويَقْرِنُ بين إصبعيه: السبابةِ والوُسطى، ويقول: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» ثُمَّ يَقُولُ: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**»[(١)].

فحين كان ﷺ يتكلم عن أمر التخويف والتحذير، كان هذا يبدو على قَسَمات وجهه، ونَبَرات صوته، من غير تكلف ولا تعمّل.

وحين انتقل إلى تقريب الساعة وبيانها استخدم ﷺ صيغة عملية لافتة، وهي الجمع بين إصبعيه، حتى يضم إلى الدّلالة اللفظيّة إيضاحًا عمليّاً مشهوداً يستقرّ في الذهن.

وحين تدرّج إلى ذكر بعض النتائج والفوائد، جاءت على صيغة فَقَراتٍ مفصولة موجزة، يأخذ بعضها بِزِمامِ بعض، وتنطلق إلى أذن السامع كأنها حبَّاتُ عِقْدٍ نظيم.

وحين ختم بقوله ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ...**» إلخ. كان من الواضح أن اللهجة قد هدأت، وأن الدورةَ الطبيعيةَ للحديث قد بلغتْ نهايتَها[(٢)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

(٢) يُنظر: «الخطاب الدعوي» (٨٨).

ولذلك قال النووي تعليقًا على هذا الحديث: يُسْتَدَلُّ به على أنه يُستحبُّ للخطيب أن يُفَخّم أمرَ الخطبةِ، ويرفعَ صوتَهُ، ويَجْزُلَ كلامُهُ، ويكونَ مطابقًا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب أو ترهيب، ولعل اشتداد غضبه كان عند إنذاره أمراً عظيمًا، وتحذيره خَطْبًا جسيمًا...[1].

٢ ـ براعة الاستهلال:

عندما كنت خطيبا كان أصعب شيء عليّ افتتاح الموضوع، وكيف أدخل إليه بطريقة تشد الناس وتحفز انتباههم وتجعلهم ينتبهون وينشدّون لِما سيقال؟ ولذلك ينبغي أن يهتم الخطيب غاية الاهتمام بصياغة المقدمة، لأنك تملك انتباه الجمهور أوَّل ما تقف وأول ما تتكلم، فإن شدَدْتَه مشى معك إلى النهاية، وإن أفلت منك في أول دقائق الخطبة صعب عليك أن تسترده بعد ذلك، والمتحدث سواء خطيب الجمعة أو غيره مجهول عند المستمعين إلى أن يتكلم في الدقائق الأولى، ثم بعد ذلك يشخصونه من بداية كلامه، إن أمسك بهم ساروا معه، وإلا سرحوا وتركوه.

والافتتاح هو الذي يجعل الخطيب يدخل عالم المتلقّي، ويشدّ انتباهه، ثم يأتي المتن، وهو المحتوى الذي سيقدمه، ثم يأتي الإغلاق أو الخاتمة، وهو ما تريد أن يفكروا فيه أو يفعلوه، بناءً على المتن الذي قدمته.

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٦/ ١٥٦).

٣ ـ قوة البداية:

سمعتُ حكايةً عن أحد الدعاة المشهورين قديمـًا أنّه دُعي إلى حفلٍ خطابيٍّ لإحدى الجمعيات الخيرية، ولكنّ بعض منظّمي الحفل لم يكونوا يرغبون مشاركته، فجعلوا كلمته آخر كلمة، حتى يكون الناس قد سمعوا وملّوا وتهيّؤوا للخروج.

وحضر الأستاذ، وتوالت الكلمات رتيبةً مكرورةً حتى نام الناس أو كادوا، فلمّا جاء دوره وقام ليلقي كلمته انتصب واقفـًا، وصمت هُنيهة، ثم قال بصوتٍ جَهْوريٍّ له رنينٌ جرسيٌّ:

سَـهَرُ العيون لغير وجهك باطلٌ وبكاؤهـنّ لغيـر فقـدك زائـلُ

أيها الإخوة الكرام.. ثم انطلق بكلامٍ شائقٍ جاذبٍ موجز، وقد شُدَّت إليه الأبصار، وأصاخت له الأسماع، ثم خرج الناس وقد نسوا كلّ ما قيل قبله، ولم يتحدّثوا بعده إلا عن كلمته.

لقد كانت قوّةُ البداية هي الصدمة الموقِظة، والقوّة الجاذبة، ولتكون البداية قويّةً جاذبةً فإنّها تبدأ بمشوّقاتٍ هي مغناطيس العقول، ومنها:

أ ـ البدء بقصة:

ومن المهم في الاستفتاح أن تكون البداية مشوقة، ومن خلال التجربة وجدت أن أكثر ما يشوّق هوّ البداية بقصة تؤدي إلى موضوع الخطبة.

وفي قصص السيرة من الإثارة والتشويق الكثير، والقصة توَطِّئ لموضوعك الذي تريد أن تتحدث عنه، وتمهد له.

إن هذا النوع من الافتتاحيات لا يفشل أبداً، بل إنه يمضي قدمًا، ونحن نتابعه، لأننا نريد أن نعرف ما الذي سيحدث؟ وما العبرة منه؟.

عندما يذكر الخطيب قصة من قصص السيرة النبوية فعليه أن يقدمها بطريقة تشد الناس، ولا يطرحها وكأنّه ينقل من كتاب، كأنْ يبدأ بقوله: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً جاء إلى رسول الله...، فإن هذه البداية تصلح في درس علمي، وليس في خطاب منبري، ولكنْ يبدأ بالقصة بطريقة مشوقة، وعرضٍ جاذب، وكأنه يحكي حادثةً شهدها، وتأثَّر بها.

ومما أذكره أنني خطبت خطبة فاجأتُ المستمعين في أولها فقلت: يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة، وأشرت إلى باب المسجد، وسكَتُّ لحظة، ثمّ قلت: واشرأبت أعين الصحابة ينظرون إلى الباب، وينتظرون هذا الداخل الذي يمشي على الأرض وقد شهد له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالجنة.

والعجيب أنّي بقيت مدة طويلة كلّما التقيت بأحد ذكرني بهذا الموقف وقال: يا أخي أنت فجعتنا حين أشرت إلى الباب وقلت: يدخل عليكم كنّا نقول في أنفسنا: مَن سيدخل الآن؟.

ب ـ **البدء بسؤال:**

وطرح السؤال في البداية هو استدراج للجمهور إلى التفكير مع الخطيب والتعاون معه.

إن استخدام هذا السؤال الافتتاحي هو واحد من أبسط وأضمن الطرق لفتح أذهان جمهورك والدخول إليها.

ومن ذلك خطبة النبي ﷺ في حجّة الوداع حين سأل الناس في أول خطبته فقال: «**أَيُّها النَّاسُ، أيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟**»، قالوا: بلى. ثم قال: «**أيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَم، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أَلَيْسَ البَلْدَةَ؟**»، قالوا: بلى. ثم قال: «**فَأيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، فسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «**أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟**». قالوا: بلى، قال: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**»[1].

وتخيّل كلَّ واحد من الحاضرين وقد استنفر ذهنه بهذه الأسئلة المفاجئة كيف سيكون تهيُّؤه لسماع الجواب؟، وهل سينسى بعد ذلك هذه الوصاة؟! وقد حُفِّز ذهنه واستُثير بهذه الأسئلة وهذا التشبيه، وأي فرق بين هذا الأسلوب النبوي المؤثر وبين التعبير بمثل: «الدماء والأموال والأعراض حرام» فمع أن النتيجة واحدة، ولكن شتّان بين إيصالها بهذه الطريقة النبوية البليغة المؤثرة، وبين تقديمها وكأنها لوحة على الطريق.

(١) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

ومن ذلك حديث النبي ﷺ حين سأل أصحابه فقال: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهرَاً بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، مَا تَقُولُونَ؟ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ[1] شَيْءٌ؟**». قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ. قَالَ: «**ذَاكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهَا الخَطَايَا**»[2].

فهل يمكن لأحد سمع هذا التساؤل والتشبيه الرائع أن ينسى بعد ذلك فضل الصلاة؟، أما لو اختصر الموضوع وقال: «الصلوات تمحو الخطايا» فأي وقع سيكون لها؟! إذا قايسنا وقعها بالصيغة النبوية بما فيها من تساؤل وتخييل، والتي هي أشد جذبا للذهن وإيقاعا للمعنى في النفس.

٤ ـ اعتن بالخاتمة:

الخاتمة هي زبدة الزُّبدة، وخلاصة الخلاصة، تأتي في آخر الموضوع لتقود السامعين إلى ميدان التطبيق، وساحة العمل، ويركّز فيها على دور المستمع وواجبه بعد كلّ ما سمع.

والخاتمة تحتاج إلى براعة، فبعض الخطباء لا يستطيع أن يصل للنهاية، والناس ينتظرون متى ينتهي؟ وبأيِّ شيء سينتهي؟ يقول كارنيجي: إذا انتهيت فأشعر المستمع أنك قد انتهيت، ولا تجعل الموضوع كالحبل المتدلي في الهواء، نهايته مقطوعة.

فما العلاج لاختيار الخاتمة المناسبة؟.

---

(١) دَرَنِهِ: هي الأوساخ التي على الجسد.

(٢) «مسند أحمد» (٨٩٢٤)، و«صحيح البخاري» (٥٢٨)، و«صحيح مسلم» (٦٦٧).

العلاج هو أن يخطط للخاتمة مثل ما يخطط للبداية، لأن الخاتمة هي التي ستبقى في الأذهان، ومن المهم أن تكون الخاتمة تجمع موضوع الخطبة، وأن يركِّز الخطيب في الخاتمة على الإجراءات العملية: «فعلينا عباد الله أن نعتني بكذا، وأن نفعل كذا» لتبقى في أذهان الناس.

فأول ما يسمع الناس ذلك يشعرون أنك بدأت رحلة الهبوط، وأن الحديث الآن إلى الختام، ومن أقبح الختام الختام الذي يفاجئ الناس، حين يتوقف الخطيب فجأة بعد أن كان منفعلاً انفعالاً قويّاً، وكأنّه يقول: ما بقي عندي شيء، وإن لم يقلها بهذا التعبير فلسان حاله يقولها، وذلك حين يقطع الموضوع ويجلس.

فهنا يأتي السؤال: ما النتيجة وما الخلاصة؟

فمن المهم أن تكون الخاتمة هي خلاصة الكلام، الذي يشعر المستمع بأنه جمع الموضوع، وأعطى فيه الإجراءات العملية التي سيطبقها هذا المستمع، بحيث يقدر المستمع حين خروجه من المسجد أن يُعَدِّد ما سيعمله من مهامّ، فيعرف ما أول مهمة، وما الثانية، وهكذا...

٥ ـ توقفْ وهم يحبون استمرارك:

عندما كنت مُحاضِراً في الجامعة كُلِّفت بالدخول إلى طلبة غاب أستاذهم، فلم أشرح لهم الموضوعات التي يشرحها لهم أستاذهم، ولكن اخترت موضوعا مفيدا لهم، فاخترت موضوع مهارات التعليم: «كيف يكون خطابك التعليمي مؤثراً في الناس وشادّاً لانتباههم؟»، وذكرت أن لذلك عشرة طرق، وبدأت أتكلم عن الأولى، ثم الثانية،

وهكذا... حتى وصلت إلى النقطة التاسعة، وكانت كل نقطة فيها قصص تشدهم، وتساؤل يُهمّهم، فكان الطلبة مشدودين معي طوال المحاضرة، فلما انتهيت من التاسعة، شكرتهم وأخذت حقيبتي متوجهاً إلى الباب، فصاحوا قائلين: لا لا، بقي النقطة العاشرة، فالتفت إليهم وأنا عند الباب وقلت لهم: هذه هي العاشرة، أن تنتهي والناس تحب أن تستمر، لا أن تنتهي وهم يتمنون أن تسكت. فكانت هذه الفكرة مما لفت أنظارهم.

والحقيقة أن اختصار الموضوع فيه مشقة وعناء أكثر من الإسهاب، ففي الإسهاب يتكلم المرء فينثر كل ما في ذهنه، أمّا إذا أراد أن يختصر ويجمع ما في ذهنه فينقيه، ويختار الأهم من المهم، ويحسن رصفه، فهذا يحتاج إلى جهد.

يقال: إن أحد الخطباء طُلب منه أن يخطب، فقال: إن كنتم تريدون أن أخطب خمس دقائق فأمهلوني أسبوعا، حتى أُحضِّر لهذه الخطبة، وإن كنتم تريدون أن أتكلم ساعةً كاملة فأنا جاهز من الآن، لأن هذا لا يحتاج استعداداً، فهذا مثل الذي يفتح كيساً وينثر كل ما فيه.

ومن جوانب الإبداع في خطبة الجمعة وجازتها، وهذا هو هدي النبي ﷺ في الخطبة، يقول جابر بن سمرة: كنت أصلي مع رسول الله ﷺ، فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا[١].

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٦).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة إنما هن كلمات يسيرات[١].

وخطب عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق خطبة بليغة وجيزة، فأعجب الناس بها فقالوا لعمار: يا أبا اليقظان، لقد أوجزتها وأبلغت، فلو تنفست في خطبتك. أي: لو أطلتها قليلا. فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ**»[٢].

وعن الحكم بن حزم الْكُلَفِيُّ قالَ: وفدتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ سابعَ سبعةٍ – أوْ تاسعَ تسعةٍ – فدخلنا عليهِ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، زرناكَ فادعُ اللهَ لنا بخيرٍ، فأمرَ بنا، أوْ أمرَ لنا بشيءٍ منَ التمرِ، والشأنُ إذْ ذاكَ دونٌ، فأقمنا بها أياما شهدنا فيها الجمعةَ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقامَ متوكئا على عصا، أوْ قوسٍ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ، كلماتٍ خفيفاتٍ طيباتٍ مباركاتٍ، ثمَّ قالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَنْ تُطِيقُوا كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ سَدِّدُوا، وَأَبْشِرُوا**»[٣].

ولـذا وجدنا خطب النبي ﷺ وأحاديثه قد حُفظت، وأكثر الأحاديث إذا كتبتها لا تصل إلى ثلاثة أسطر، ومع ذلك كانت جامعة مكتنزة بالمعاني الكثيرة، فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً.

---

(١) «سنن أبي داود» (١١٠٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٦٩).

(٣) «مسند أحمد» (١٧٨٥٦)، و«سنن أبي داود» (١٠٩٦).

فخطيب الجمعة ينبغي أن يدخل مع نفسه في تحدٍّ: كيف أختصر هذا الموضوع وأقدمه في جرعة مركَّزة؟ وكما قال الجاحظ: للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية[١]. وقال فولتير: السر لتكون مُمِلًّا هو أن تقول كل شيء.

ففي النهاية إذا أطلت تركك الناس وسرحوا، فينبغي أن تتحرك في مساحة انتباه الناس، ومساحة انتباه الناس عادةً تتراوح ما بين (١٥) إلى (٢٠) دقيقة.

وليس الكلام هنا عن الخطب العارضة والخطب البرلمانية، وإنما نتكلم عن خطبة دورية كخطبة الجمعة.

والجاذبية في الحديث دائما مقرونة بالوجازة والاختصار، قال كارنيجي: الحديث مثل إطعام الطفل، إذا كان هناك طعام كثير على الملعقة فإن الطعام لن يدخل فم الطفل، ولكن سيلطخ وجهه. وهذا مثل الحديث الطويل، أمّا إذا تكلمت بوجازة استطاع المتلقي أن يتشرب حديثك ويستوعبه ويتفاعل معه، وإذا أطلت تشتت وأُرهق وملّ.

واختصار الخطبة وقصرها يستر عيوبها، والاسترسال فيها يظهر عيوبها، ولذلك يقول العرب: «مَنْ كثُرَ كلامه كثُرَ خطله»[٢].

إن الموضوع قد يكون طويلاً، والأدلة كثيرة، وفي مقابلها وقت قصير، هنا تشتد الحاجة إلى اختصار الموضوع اختصاراً غيرَ مُخِلٍّ، فيركِّزُ على الأفكار الرئيسة دون غيرها من الأفكار الفرعية.

(١) «البيان والتّبيُّن» للجاحظ (١/ ١٠١).

(٢) خطلُه أي: اضطرابه وخطؤه.

وإذا جمعتَ الأفكار والمعلومات فانتقِ الأفضل منها كما يُنتقى القمح، حبّة حبّة فلا تبقى سوى حبّة القمح الجيدة، وكذلك خطيب الجمعة يختار المعلومات المهمة من غير أن يغرق فيها.

ويمكن أن يجزّئ الموضوع إلى أكثر من خطبة إذا رأى أن المادة الكثيفة مهمة.

الفصل الخامس
هذه تجنَّبْها

هذه تجنَّبْها

هناك محاذير في أداء الخطبة، وعلى الخطيب أن يحذرها، ومزالق يؤدي إليها الحماس، وعليه أن يَحذَرها، وأن يعلم أن الخطأ على المنبر مشهور مذكور، وقد قيل: «إن خطيئة المنبر صلعاء». ومِن هذه المحاذير التي قد تُضعف الخطبة أو تشوِّهها ما يلي:

١ ـ لا تُفشِ سرّك في بداية الخطبة:

إن الخطيب إذا أفشى سره وبيّن موضوع الخطبة في أول كلمة منها استرخى الناس وعرفوا الموضوع من أوله إلى آخره، وصاروا يستمعون وهم يقولون: متى نصل إلى النهاية؟.

لا تُفشِ سرك في أول الخطبة، اجعل المقدمة قصة أو تساؤلا، فهذا من أكثر ما يجلب المستمعين إليك.

فتخيل خطيبًا استفتح خطبته قائلاً: أما بعد، عباد الله، إن الزنى فاحشة عظيمة.

إنّه قد كشف سره، فلو تكلم ساعة أو ساعتين أو شهراً أو شهرين لن يزيد على أن الزنى فاحشة عظيمة، فهو بهذه الطريقة أحرق الموضوع، لكن لو بدأ بقصة الشاب الذي جاء يسأل النبي ﷺ أن يأذن له في الزنى، كيف سيكون شد الناس وجذبهم لهذا المعنى وتعظيمه في نفوسهم؟.

إذن يحاول الخطيب أن يكون المدخل مُجملاً، لكنّه يؤدي إلى موضوعه بطريقة تجعل المتابع مشدوداً ينتظر النهاية بشوق وليس بملل.

٢ ـ تجنّب الحكايات المجهولة:

فيحذر الخطيب من الحكايات التي يتناولها القصاص، ويوردها بعض الوعاظ في مواعظهم وبعض الخطباء من مثل: «وحدثني من أثق به» و«يا إخوان، هناك شخص فعل كذا وبعدها حصل له كذا وكذا» من القصص التي هي أخبار يغلب عليها الوضع، ومع الأسف أولع بعض الوعاظ بالغرائب، وقد قيل: «مَن تتبع الغرائب كذب»، فيأتون بهذه القصص التي كثر فيها الكذب، فقد يغتر بها الخطيب ويصدقها ويخطب بها، وكم من الوعاظ الذين امتهنوا ذكر غرائب الحكايات من الإنتاج المحلي!.

وقد كنت أستمع إلى أحد محترفي الوعظ وهو يقص قصة من هذا النوع، فمن كثرة الغرائب التي حشدها والمصادفات التي جمعها صرت أقول في نفسي: ألا يشعر هؤلاء أن الله عَزَّوَجَلَّ وهب الناس عقولاً يفكرون بها، فيكتشفون فجاجة هذا الكذب وقبحه؟!

وتعظُم الشناعة إذا جعلها موضوعـًا لخطبة الجمعة فأضاع علينا خطبة الجمعة بهذه الحكاية الباطلة، ولو كلف نفسه أن يبحث عن القصة ما مصدرها ومصداقيتها؟ لاستراح وأراح.

وتتأكد ضرورة البحث عن صحة الروايات التي يرويها إذا كانت مروية عن الصحابة أو التابعين، فيفتش عن مصداقيتها وموافقتها للشرع وموافقتها للمنطق والعقل، كالقصة الباطلة التي تُروى عن أبي ذر الغفاري أنه كفل رجلاً حُكم عليه بالقصاص، فطلب المهلة ليذهب إلى أهله يودّعهم ويوصيهم، ثم يعود بعد ثلاثة أيام، فطلب أولياء الدم منه كفيلاً يكفله، فكفله أبو ذر الغفاري، فتأخر الرجل، وكاد القصاص يُقام على أبي ذرّ لولا أن جاء الرجل في آخر لحظة، وهي قصة باطلة نقلاً وحكمـًا.

ومثل ذلك رواية قصة اليهودي الذي كان جاراً للنبي ﷺ وكان يُلقي الأذى في طريقه، فلمّا فقد الأذى سأل عنه فعلم أنه مريض فعاده، وهي قصة مكذوبة لا مصدر لها.

فلم يكن للنبي ﷺ جارٌ يهوديٌ، ولا يمكن أن يجرؤ يهودي على فعل ذلك والصّحابة مع رسول الله ﷺ وحولَه، ونحو ذلك من القصص الموضوعة والضعيفة.

وإنّ في قصص القرآن وصحيح قصص السنة كفاية وغنى.

٣ ـ ابتعدْ عن الابتذال في الكلام:

وذلك باستخدام تعبيرات سوقية، أو كلمات شعبية عامية مِن التي يقال مثلها في الأسواق، ومجامع الغوغاء، لأن لمنبر الجمعة وقاره ورزانته، فلا تُذكر عليه كلمة نابية، ولا لفظة فاحشة، ولا عبارة مبتذلة.

واللغة الفصحى السهلة، البعيدة عن التقعّر والإغراب، هي القالب اللائق بالخطبة التي يسمعها جمهور عامٌّ، فلا يترقى الخطيب إلى لغة المعاجم والقواميس، التي تحجب الفكرة عن سامعه، ولا ينحط إلى لغة السوق المبتذلة، التي تُزْهِدُ الناسَ فيما لديه، أو تَصْرِفُهم عنه.

وإنّما يَختار من الألفاظ ما يليق بهذا المقام، وما يُفهِم الحاضرين، وتستوعبه مداركهم.

٤ ـ تجنب الكلام في الأشخاص:

ما أحرى الخطيب أن ينأى بنفسه عن الحديث عن الأشخاص والأعيان، تصريحًا أو تلميحًا! فالمنبر لبلاغ رسالات الله، وليس لتصفية الحسابات، وإذكاء الفتن والخلافات، وإذا قال أحد قولاً خاطئًا واشتهر واحتاج الخطيب للرد عليه فإنه يناقش القول ويُعرض عن قائله، وخذ الدلالة من القرآن الكريم، فقد ردّ أقوال المشركين والمنافقين وأبطل حججهم، ولم يُسمِّ أحداً منهم، ولم يذكر أحداً من أعداء الرسول ﷺ على كثرتهم باسمه غير عمه أبي لهب لحكمة خاصة.

وما أجدره أن يجانب لغة السب والتقريع والتوبيخ، ورديء القول، وشنيع المقال، فالعفة من الإيمان، والبذاءة في النار.

٥ ـ تجنَّب التكلف:

ومِن ذلك التكلف في الصوت، والتكلف في الإشارة، والتكلف في العبارة، في صياغة الألفاظ، فإن الناس يريدون أن يستمعوا إليك أنت فلا تقلد أحدا آخر، إنّ المنبر منصّة خطاب، وليس خشبة مسرح، وأنت خطيبٌ، ولستَ ممثّلاً.

ومن ذلك التكلّف في الأسلوب والعبارات، كتكلف السجع الممجوج، أو نقل الألفاظ العلمية التي تحتاج إلى شرح العلماء في خطاب موجَّه للعامة والبسطاء.

٦ ـ تجنب الأمر المباشر:

يتجنّب الخطيب البارع الأمر المباشر مثل: افعلوا أو لا تفعلوا، فإنّ الأمر بطبيعته ثقيل على النفوس، ومُشعِرٌ باستعلاء الآمِر على المأمور وفوقية الخطاب.

ويستعمل بدل ذلك التعبيرَ المشترك بينه وبين المخاطَبين، مثل: «لنَفعل كذا»، و«لنحرص على كذا»، ونحو ذلك مما يُشعر المستمعين بالمشاركة، وبقرب الخطيب، وتواضعه، واندماجه معهم.

وعلى الخطيب أن يستشعر أنه يوجّه كلامه إلى نفسه قبل غيره، ويعظ نفسه قبل غيره، وأقرب أذنٍ إلى فمه أُذنه، وأوّل مَعنِيٍّ بوصاته هو نفسه.

٧ ـ تجنّب مواضيع الخلاف:

من المحاذير أن يطرح الخطيب رأيًا خاصّـًا أو ترجيحـًا في مسألة خلافية.

وبما أن خطبة الجمعة خطابٌ عام لجميع الحاضرين على اختلاف مستوياتهم فليأخذ قيمة متّفقـًا عليها، فتكون خطبة الجمعة في معاقد الدين ومحكماته، وليست في مواطن الاختلاف التي يكون لخطيب الجمعة رأيٌ خاص فيها، فلا يناسب أن يخطب خطيب الجمعة عن حكم صلاة الجماعة أسنة هي أم واجبة؟، فهذه مسألة قد اختلف فيها العلماء، وإن رجّحتَ رأيا فللرأي الآخر أدلته، فينبغي للخطيب أن لا يحتكر منبر الجمعة ليطرح رأيا قد اقتنع به واختاره، سواءٌ اختار هذا القول أو ذاك.

ولكن يتكلم عن أهمية صلاة الجماعة وعظيم فضلها، ومضاعفة الأجر لمن شهدها، وعن أثرها الاجتماعي، والحكمة التي راعاها الشارع من الحثّ عليها، فهذه قيمة متفق عليها.

ومثل زكاة الحلي للنساء هل تجب فيها الزكاة أو لا تجب؟ فيختار الخطيب قولا ويتبناه على المنبر، مع أن هذه مسألة مختلف فيها، فدع الناس على الفتوى الموجودة عندهم، ولكن تكلم عن أهمية الزكاة وفضلها، فهذه هي القيمة المتفق عليها.

أو يخطب عن حكم المسح على الجوارب، بجوازها أو المنع منها، فهذه مسألة خلافية تناقَش في درس، أو فتوى.

ولكنّ القيمة المتفق عليها: فضل إسباغ الوضوء، وأنّ الطهور شطر الإيمان، يحط الله به الخطايا حتى تخرج الخطايا مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء، فهذه فضائل متفقٌ عليها، ونحو ذلك.

٨ ـ ليست الخطبة وجهة نظر خاصة:

ليس لخطيب الجمعة أن يتكلم عن وجهة نظره، فيقول: «والذي أراه»، «والذي أعتقده» فيطرح وجهة نظره في هذه الأمور أو تلك، أو تحليلاته في الشأن السياسي ونحو ذلك، لأن منبر الجمعة ليس إلا منصة لـ«قال الله» و«قال رسوله» وما يستفاد منهما.

أما رأيك الخاص ووجهة نظرك فاطرحهما في مقال في صحيفة، أو في شبكات التواصل الاجتماعي (سوشيال ميديا)، أو في محاضرة، أو درس، أو في غير ذلك.

فليست خطبة الجمعة منبر وجهات النظر، بل هي شعيرة من شعائر الدين.

٩ ـ ليست الخطبة انتماءً خاصّاً:

من المحاذير التي ينبغي أن يتيقّظ خطيب الجمعة لها في طرح موضوعاته أن لا يكون موضوع خطبة الجمعة انتماءً خاصّـًا، إلى حزب، أو جماعة، أو طائفة، أو قبيلة، أو جنس، أو جنسية، فالمسجد للمسلمين جميعا.

وتحويل خطب الجمعة إلى انتماءات ضيقة هو زرع لبذور الشقاق، وتحويل خطب الجمعة إلى منصات للخصومات والمهاترات، فيصير منبر المسجد كأنه منصّة في «هايد بارك»، لأن الناس عندما تطرح عليهم انتماءك الخاص سيخالفونك بانتماءاتهم الخاصة أيضا.

وعندما سمع النبي ﷺ خصومةً بين المسلمين، ونادى بعضهم: يا للمهاجرين، ونادى آخرون: يا للأنصار؛ غضب ﷺ وقال: «**أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!**» مع أنّهما اسمان شرعيّان شريفان، لكن النبي ﷺ أنكر التحزّب عليهما[1].

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٠٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨٤). ويُنظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٦٢٧).

الفصل السادس

ماذا بعد الخطبة؟

ماذا بعد الخطبة؟

١ ـ الخطيب بعد الخطبة:

على خطيب الجمعة أن يستشعر أن خطبته دعوة؛ لأن الداعية لا بد أن يكون على تواصل مع مَن يدعوهم، ولِذا فلا يظنّ أن خطبته انتهت بإلقائه، ودوره انتهى بانتهاء الصلاة، بل لعلّ ما بعد ذلك لا يقل أهمية عما قبله.

ولِذا فينبغي للخطيب أن لا ينصرف فوراً بعد الخطبة والصلاة، ولكن عليه أن يقف للناس ويتلقّاهم بودٍّ وترحاب واحتفاء بكل واحد منهم، مبادراً إلى الترحيب بهم، والتعرف عليهم ومعرفة أسمائهم ما أمكن، والعناية بالأطفال والفتيان وتخصيصهم بالسؤال عن أسمائهم ودراستهم، فهم الجيل القادم، فيزرع في وجدانهم الانطباع الحسن الذي يرغّبهم في المسجد وما يُقال فيه.

وعندما يتحدث إليك أحدٌ منتقداً بعض ما قلت أو منتقداً طريقتك فإيّاك أن تتحفّز للردّ عليه ونقض وجهة نظره، ولكنْ قابِل ذلك بترحاب واشكره على نصيحته، وإن شعرت بصوابها فأظهر له ذلك،

وإنْ شعرت أنها غير صحيحة فاشكره على تواصله، وعِده بأنّك ستتأمّلها وتفكّر فيها من غير أن تشرح له عدم صوابها، فكسب القلوب أهمّ من كسب المواقف.

وبذلك يكون الخطيب متواصلاً مع جماعة مسجده، وساكني حيِّه، حاضراً في نفوسهم، ومؤثراً فيهم، فكثيراً ما يبدأ دورك بعد الخطبة، كيف تصرّفك معهم، وعلاقتك بهم؟!

٢ ـ الخطيب بعيداً عن منبره:

تذكّر أنك تمثّل المنبر وموقف الخطيب الداعية حيثما كنت، فالمنبر يصاحبك حيثما كنت، فقد رآك الناس واقفاً عليه، فحيثما كنت فسيذكرونك به، وهذا ما لا خيار لك فيه، فأنت تمثّل الخطبة التي تخطبها، والدعوة التي تدعو إليها، ولذا فمن المهم أن يستشعر الخطيب في كل مشاهده أنه يمثّل الدعوة والشعيرة، فلا يراك الناس في مواطن الشُّبَه، ولا يسمعون منك تبذلاً وسَفَهاً، ولا يتلقّون منك سوء خُلق أو سوء تعامل فيلصقونها بالدين والمتدينين.

٣ ـ ربما تكون الخطبة فتنة:

موقف الخطيب على المنبر موقف فتنة ومزلة، إذا تسربت إلى نفسه خواطر العُجب والزهو، وبخاصة حينما يرى جموع الناس قد حضروا عنده، وأن كثيراً منهم قد قصدوه، فيكون عُرضةً أن يجتذبه الشيطان إلى الغرور والعُجب، ولِذا عليه بالحذرِ من غرور الشيطان، وكسرِ النفس إذا اشرأبت إلى العجب، والحذر من تسلّل خواطر الرّياء،

وانتظار ثناء الناس، والتّطلّع إلى إعجابهم، وإنّما يكون نظره وهمّه إلى إخلاصه وصدقه، واجتهاده في بلاغ رسالته.

قال بعض السلف: إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماع الناس عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك[١].

٤ ـ أبشِر بفضل الله وعطائه:

فالخطيب إذا بذل جهده وسار في هذا الطريق فإن الله عَزَّوَجَلَّ يرسل له رسائل هي بشائر التثبيت، تبشره أن جهده قد آتى ثماره، وأن عمله قد بلغ محله.

ومن بشائر التثبيت، أن تلقى أحدا بعد سنين يقول لك: إن سبب هدايته خطبة سمعتُها منك، أو أن كلمة قلتَها غيّرت مجرى حياته. فاعتبرها من عاجل البشرى، ومن عظيم فضل الله عليك.

٥ ـ تحزين الشيطان:

كثيرا ما كنت أعود من خطبة الجمعة أو الدرس أو المحاضرة وفي نفسي عتاب وعدم رضا، ألوم نفسي وأقول: لو أني أعطيت الخطبة حقها من الإعداد، ولو كنت حضَّرت بشكل أفضل للمحاضرة... ولو ولو... فتغشاني حالة من الكدر....

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٣١)، و«صناعة خطيب ماهر» أحمد بن ناصر الطيار (٧٨).

والآن وقد تهيأ لي الوقت للتأمل علمت أن كثيراً من ذلك تحزينٌ من الشيطان أعوذ بالله منه، وأنه بكيده وعداوته أراد أن ينسيني نعمة الله بالتوفيق لهذا العمل والذي هو من أجل النعم وأحسنها.

وأنَّ الله شرف المتكلم بالدعوة إليه، ومكنه من سلوك طريق الأنبياء والناصحين، والقيام في مقامات الأخيار ونفع الخلق.

وكان الواجب أن تتلقى هذه النعمة بالغبطة والشكر والفرح ولو لم تبلغ الخطبة أكمل أحوالها والمحاضرة كمالها...

فمن وفقه الله لشيء من هذه الأبواب فليحمد الله كثيراً، وليغالب شيطانه ويتعوذ منه، ولا يسترسل مع هذه الخواطر.

فوالله إن كلمة واحدة من الحق يوفقك الله لنفع الخلق بها جديرة بالفرح وإطالة الشكر[١].

وكثيراً ما يتذكر الخطيب بعد الخطبة فكرة أو عبارة نسي أن يذكرها في خطبته، فيتأسف لذلك، ويشعر أنه لم يتم الموضوع، وربّما سرت إليه حسرة الندم لذلك، وهذا أيضـًا من تحزين الشيطان.

وعليه أن يعلم أن ما خطر بباله لم يخطر في أذهـان مستمعيه، وأنهم سيتذكرون مجمل الموضوع، وليس جزئياته، ولِذا فإن عليه أن لا ينقاد لهذه المشاعر السلبية، ويبالغ في الاستدراك على نفسه، وأن يحمد الله على توفيقه، ويسأله الإخلاص والقبول، ويفرح بفضل الله عليه؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨].

---

(١) باختصار من مقالة د. عبد الله بلقاسم.

فهرس الموضوعات

مقدّمة ٥
تمهيد ٧
الخطابة وقيادة الأحداث ٨
خطب الجمعة ١٧
الرسول ﷺ خطيباً (١) ٢٢
الرسول ﷺ خطيباً (٢) ٢٨
الرسول ﷺ خطيباً (٣) ٣٧
تجربتي في الخطابة ٤٦
الفصل الأول: مسيرة الإعداد ٥١
مسيرة الإعداد ٥٢
١ ـ الاهتمام بالخطبة: ٥٣
٢ ـ استشعر عظمة الموقف: ٥٤
٣ ـ استشعر الدعوة في الخطبة: ٥٥
٤ ـ أكثر من الدعاء: ٥٥
٥ ـ اختيار الموضوع: ٥٦
٦ ـ تحديد هدف الخطبة: ٥٧
٧ ـ إعمال الذهن: ٦٠
٨ ـ تكلَّم فيما تحيط به علما: ٦١
٩ ـ حدث الناس بما يستطيعون: ٦٢
١٠ ـ مناسبة الموضوع للمخاطبين: ٦٥
١١ ـ مراعاة حال المسجد: ٦٧
١٢ ـ مراعاة الظرف الحالي: ٦٨
١٣ ـ تنويع مواضيع الخطب: ٦٩
١٤ ـ اختيار فكرة واحدة: ٦٩
الفصل الثاني: مثلث التكوين ٧١

مثلث التكوين ٧٢
أولاً: الحصيلة المعرفية ٧٣
١ ـ استظهار القرآن مع تفسير ميسر: ٧٥
٢ ـ استعراض السنة استعراضاً أفقياً من الكتب المجرَّدة: ٧٦
٣ ـ معرفة السيرة والشمائل: ٧٧
٤ ـ التأصيل في مسائل الإيمان: ٧٨
٥ ـ كتب التزكية والأخلاق: ٧٨
٦ ـ الإلمام بالتاريخ الإسلامي: ٧٩
٧ ـ التزود من كتب الدعوة والفكر المعاصرة: ٧٩
٨ ـ متابعة الواقع: ٧٩
ثانياً: الصّياغة اللَّفظية ٨١
ثالثاً: الأداء الخطابي ٨٣
١ ـ مظهر الخطيب: ٨٦
٢ ـ التواصل البصري: ٨٧
٣ ـ مهارة الارتجال: ٨٧
٤ ـ فن الإشارة: ٨٨
٥ ـ تنوّع الصوت: ٩٠
٦ ـ تجنّب العبث: ٩٢
الفصل الثالث: إعداد الخطبة ٩٣
إعداد الخطبة ٩٤
١ ـ جمع الشواهد من الوحيَين: ٩٤
٢ ـ جمع المادة العلمية: ٩٦
٣ ـ خصائص الخطاب الجماهيري: ٩٧
٤ ـ بشِّروا ولا تنفّروا: ٩٩
٥ ـ تفاءلْ وانشرِ الفأل: ١٠١
٦ ـ التجديد في الطرح: ١٠٢
٧ ـ الوضوح: ١٠٣
٨ ـ التعليم في الخطبة: ١٠٣

٩ ـ هي خطبة وليست محاضرة: ١٠٦
الفصل الرابع: أداء الخطبة ١٠٩
أداء الخطبة ١١٠
١ ـ روح الخطبة: ١١٠
٢ ـ براعة الاستهلال: ١١٥
٣ ـ قوة البداية: ١١٦
٤ ـ اعتن بالخاتمة: ١١٩
٥ ـ توقفْ وهم يحبون استمرارك: ١٢٠
الفصل الخامس: هذه تجنَّبْها ١٢٥
هذه تجنَّبْها ١٢٦
١ ـ لا تُفشِ سرّك في بداية الخطبة: ١٢٦
٢ ـ تجنّب الحكايات المجهولة: ١٢٧
٣ ـ ابتعدْ عن الابتذال في الكلام: ١٢٩
٤ ـ تجنب الكلام في الأشخاص: ١٢٩
٥ ـ تجنَّب التكلف: ١٣٠
٦ ـ تجنب الأمر المباشر: ١٣٠
٧ ـ تجنّب مواضيع الخلاف: ١٣١
٨ ـ ليست الخطبة وجهة نظر خاصة: ١٣٢
٩ ـ ليست الخطبة انتماءً خاصّاً: ١٣٢
الفصل السادس: ماذا بعد الخطبة؟ ١٣٥
ماذا بعد الخطبة؟ ١٣٦
١ ـ الخطيب بعد الخطبة: ١٣٦
٢ ـ الخطيب بعيداً عن منبره: ١٣٧
٣ ـ ربما تكون الخطبة فتنة: ١٣٧
٤ ـ أبشِر بفضل الله وعطائه: ١٣٨
٥ ـ تحزين الشيطان: ١٣٨

كتب للمؤلف

اليوم النبوي

قصص نبوية

السيرة اليسيرة

الحياة النبوية

أماكن نبوية

إلى أخي وأختي

الآثار النبوية

سماء الذاكرة

كأنك معه
صفة حجة النبي ﷺ

حديث الغدير

سنام الإسلام

تعرف على القرآن

الحياة بعد الحياة

بداية التاريخ

القبر المقدس

أما بعد

على بصيرة

التواصل مع المؤلف

Website

Email

Facebook

Youtube

Telegram

TikTok

WhatsApp
(+90) 5467723779

X

أمّا بعدُ

في مهاراتِ الخطابةِ وفنونِ الإلقاءِ

سعدت بزيارة مراكز إسلامية في بلاد الدعوة ومهاجر الدعاة، ورأيت من اجتهادهم و إنجازهم ما ملأ النفس إعجاباً بهم وغبطةً لهم.

وكنت في كل مرةٍ ألقاهم أشعر أني أتزوّد بمدد روحيّ، وطاقة نفسية عالية، فكثير من هؤلاء الإخوة نموذج للتفاني، والاستغراق في العمل، والتلذذ بالإنجاز.

وكنت في نشوة هذه اللقاءات أتفاعل معهم ببعض الخواطر من وحي اللقاء، وأسمع منهم بعض الإفادات، فرأيت جمعها في هذه النقاط المختصرة، لتكون رسالةَ تَذاكُرٍ وتناصح، تؤكد ما ذكر، وتُذَكر بما لم يذكر، و أنتظر ممن اطلع عليها من إخواني إفادتي بمرئياتهم من إضافة أو استدراك، سائلاً الله أن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، والمتواصين بالحق والصبر.

عبدالوهاب الطريري
أبا الخيل